عبد الكريم الخطيب

فى طريق الاسلام

الناشر
دار الكتاب العربى بمصر
محمد حلمى المنياوى

عبد الكريم الخطيب

فى طريق الإسلام

الناشر
دار الكتاب العربى بمصر
محمد حلمى المنياوى

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

« قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى ٱللّٰهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ . . أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ ٱللّٰهِ ، وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » .

(قرآن كريم)

هذا « الكتاب » ما أردتُ له ولا قصدت إليه ، وإنما هى فكرة سنحت لخاطرى ، ثم علقت بمشاعرى ، وظلت مع مسرى الليالى والأيام تنمو ثم تنمو حتى نضجت ثمارها ، ووجدتُنى أديرها على فمى كلمات أُبادِهُ بها أصدقائى كلما جمعنا مجلس ، ودار بيننا حديث فى شئون المسلمين ، وما يتصل بالمسلمين ! ثم بدا لى أن أجعل من هذه الكلمات مقالا يجمع شتيتها ، ويضم أطرافها ، لتكون أقربَ إلى الإبانة عما فى نفسى ، وأَثبتَ فى مواقع النظر والرأى لمن شاء أن ينظر أو يرى .. باحثاً أو ناقداً ..

وكان الرأى عندى أول الأمر ألا أطيل الحديث حُول هذه الفكرة وألا أدخل بها إلى أبعد من الشاطئ ، فذلك ربما كان أدعى إلى السلامة وأدنى إلى الطمأنينة !

ولكن الحديث قد امتد وجاوز كثيرا المدى الذى قدرته ، وما كنت أضع فى حسابى أن يبلغ هذا البحث مبلغ الكتاب ، ولهذا لم يجىء على نمط الكتب المرتبة المبوبة ، وإن كان البحث كله يعد باباً واحداً . يصور فكرة واحدة .

والفكرة التى دار حولها هذا البحث هى أنى مؤمن أشد الإيمان وأوثقه بسلامة الدين الإسلامى ، وخصب تعاليمه وأحكامه ، وأنه دين يفيض الخير والقوة والعزة على من يدين به و يعيش فى ظله .

ثم إنى إذ أتلفت إلى آفاق المجتمع الإسلامى فى كل موطن من مواطن الإسلام أرى حياة هزيلة ضاوية ، وأرى أمماً غارقة فى الجهل ، ضاربة فى متاهات الحياة ، لا تمسك من الدنيا إلا بالقليل التافه منها ، ولا تتجه إلى الآخرة إلا فى تخاذل وضعف وفتور ، ومن هنا كان عجبى ودهشى . . إذ كيف تلد مبادىء الإسلام وتعاليمه هذه المخلوقات الشوهاء ؟ وكيف تنبت تربته الخصبة هذا الشوك والحسك ؟ إن فى الأمر لشيئاً ، بل وأشياء ! فما هذا التناقض بين العلة والمعلول ، و بين السبب والمسبب ، بالذى يقبله العقل ، و يرضى به الفكر ، وتستريح له النفس .

و إذن فلا بد من البحث عن أسباب هذا التناقض ، ولا بد من التعرف على المواطن التى تسرب منها .. إن كانت من الدين وتعاليمه ، أو من المجتمع وطبيعته .

والدين الإسلامى . . لا يمكن أن يكون موضع نظر و بحث فى موضوعه من حيث مادة تعاليمه وأحكامه ومن حيث المنهج الذى رسمه للتربية بهذه التعاليم والأحكام . . فهذه مسألة قد فرغ البحث فيها ، وقال التاريخ قوله عنها وحكمه عليها . . فقد سجل التاريخ نتائج لا تقبل الشك أو الجدل عن الآثار العظيمة التى تركها الإسلام فى المواطن التى حل بها ، وقدر لها الانتفاع به والتفاعل معه ، فلقد كان ينزل الإسلام بأحط البيئات وأقربها إلى الحيوانية ،

فإذا به ينقلها فى سرعة عجيبة إلى أعلى مراتب الإنسانية وأكملها ، وإذا بها تزخر بألوان النشاط الإنسانى من عقلى وروحى وجسمى ، فلا تدع لوناً من ألوان الطاقة الإنسانية إلا أخرجته فى أبدع صورة وأتمها . . .

وهذا ما تحدث عنه كثير من آيات الكتاب الكريم فيما تشتمل عليه تعاليمه من قوى الإحياء للنفوس والقلوب والعقول . . يقول تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ويقول جل شأنه فى النبى الكريم صاحب الرسالة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ومن الرحمة أن يحصل الناس من الحياة على أوفر ما فيها من خير .

فالدين إذن قائم على شرط السلامة والصحة . . وإذا كان هناك عيب أو قصور فى آثاره ونتائجه فإن موطنه المجتمع الذى ينتسب له ويحسب عليه !

وذلك هو الذى جعلتُ مدار البحث فيه ، واتجاه النظر إليه . . فالأرض الخصبة لا تفصح عن مكنونها ولا تكشف عن طبيعتها إلا حين تتصل بها اليد العاملة وتتخذ لها البذور الصالحة . . وكذلك الإسلام لا تعرف آثاره ، ولا تظهر مبادئه إلا فى المجتمع الذى يندمج فيه ويعمل به .

فهذا التخلف الذى صار إليه المسلمون ، وهذا الضعف الذى نزل بهم ، وهذه العيوب التى غمرت مجتمعاتهم «هى كلها من جهتهم، والخلل حدث فيهم، فالكهرباء لا يشرق نورها ، ولا تسرى حرارتها إلا إذا تمت دورة كاملة بين تياراتها السالبة والموجبة ، فإذا وقع فى محيط هذه الدائرة مادة عازلة انطفأ النور وخمدت الحرارة .. وبين المسلمين والإسلام مواد عازلة كثيرة تحول بينهم وبين الاتصال الصحيح بدينهم والانتفاع بما فيه من خير كثير .

وهذه المواد العازلة .. هى خليط من تصورات مريضة ، ومفتريات مضللة ، وقيادات جاهلة ، اتصلت بالدين ، وتسلطت على عقول المسلمين ، فألبسَت عليهم أمرهم ، وألقت على أبصارهم سحبا كِثَافاً حجبت عنهم كل ضوء ، فباتوا وأصبحوا فى ظلام لا يعرفون معه طريقا إلى النور . حتى لكأنهم فى قول المعرى :

ويصير الأقوام فى مثل أعمى فهلموا فى جنْدَسٍ[1] نتصادم

* * *

وهذه المباحث التى أقدمها فى هذا الكتاب إنما غايتها كشف هذه المواد العازلة التى قطعت الصلات بين المسلمين و بين الإسلام ، وهى التى ألقت على هذا الدين كثيرا من ظلال الشك والتهم . . فإذا كنت قد وفقت إلى شىء من هذا الذى قصدتُ إليه فذلك فضل من الله يستوجب الحمد والشكر ، و إذا كان التوفيق قد أخطأ هذا البحث فعن غير قصدى ووراء ما انتويت . . . « و إنما الأعمال بالنيات » .

* * *

هذا .. ور بما كانت إذاعة هذا البحث قد جاءت فى غير وقتها المناسب .. ذلك لأننا نستقبل فى هذه الأيام حملات كثيرة على الدين وعلى المتدينين ، و بعض هذه الحملات يراد بها الكيد والتضليل والهدم إذ كان القائمون بها ممن لا يهتمون بالدين ولا يحفلون به ، ولا يرون فيه شيئا ينفع الناس .

ثم إن التهجم على الدين والتطاول على مقدساته قد صار فى هذه الأيام عند بعض الكتاب ، سِمَةً من سمات « التقدمية » والتفكير الحر التى يحرص

---

(١) الجندس : الظلام الشديد .

كثير من الكتاب على أن يُعرَفوا بهما بين الجمهور ليرتفع ثمنهم فى سوق التجارة بالأقلام .

وأيا كان الأمر . . فإن الدين أثبت وأمنع من أن ينال منه الطنين ، وليس يضير المعدن النفيس أن تتخطاه أبصار الجهلة كما لا يضير الشمس أن تغشى بضوئها الخفافيش والهوام .

والذى أنبِّه إليه هو ألا يختلط على بعض الأفهام هذه الحملات الموجهة إلى الدين بالحملات الموجهة إلى المتدينين ، فالدين شىء ، والمتدينون به شىء آخر . الدين جوهر ، والمتدينون به عرض . والجوهر ثابت لا يتغير ، والعرض فى معرض التحول والتغير على الدوام . .

وإذن فلا بأس من البحث فى المجتمع الإسلامى ، ولا ضير من الكشف عن مواطن الضعف فيه ، إذ كان من شأن هذا المجتمع — كأى مجتمع آخر أن يتعرض لتقلبات الحياة ، ويخضع لمؤثراتها الداعية إلى القوة أو الضعف . .

وإذن فعلى بركة الله ، وفى سبيله نذيع هذا البحث . . نكشف به العوارض التى عرضت للمسلمين ، وأفسدت عليهم مناهج الرأى فى دينهم ، وسدت عليهم منافذ العمل فى دنياهم .

نسأل الله الهداية ، ونستلهمه التوفيق .

التنكر للفطرة

من الحقائق المقررة التى لا تتسع لجدل أو مِرَاء، أن الإسلام دين تقوم دعوته على السماحة واليسر، وتجرى تعاليمه على مجانبة المشقة والحرج، من حيث كانت رسالة الإسلام مختَتَم الرسالات السماوية، ومن حيث كانت دعوته دعوة شاملة عامة، تتجه إلى الإنسانية جميعها من مختلف الأمم والأجناس.

و إن الدعوة حين تكون على هذا الوجه — فى عمومها وشمولها — يجب أن تكون من اليسر والوضوح بحيث تنالها أفهام العامة والخاصة على السواء، وبحيث يفهم عنها كل من يتصل بها، ويدعى إليها، مهما كان حظه من الذكاء ومبلغه من العلم، ولو جَرتْ على غير هذا لكان حمل الناس عليها جميعاً إعناتاً لهم و إرهاقاً، وكان تكليفهم بها ضرباً من التحدى ولوناً من العنت، وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً «لا يكلِّف الله نفساً إلا وُسعَها[1]»، «وما جعل عليكم فى الدين من حَرَج[2]».

كان لا بد إذن أن تجىء الرسالة الإسلامية على هذا السمْت الواضح القريب، الذى يتَّسق مع الفطرة، ويتجاوب مع واقع الحياة البعيدة عن الزخرف والزَّيْف، المصفَّى من مرذول العادات وموروث الأباطيل.

ولحكمة بالغة اقتضت إرادة الحكيم العليم أن تكون الجزيرة العربية مهبطَ الرسالة المحمدية، ومغرس مبادئها، ومطلع ثمراتها، من حيث كانت

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

(٢) الحج : ٧٨ .

الجزيرة العربية والحياة التى يحياها سكانها خير مكان تبرز فيه معالم الفطرة الصحيحة السليمة « فطرةَ الله التى فطر الناسَ عليها[1] » ، إذ لم تتحول بالناس الحياة هناك عن طبيعتها ، ولم يحاولوا هم أن يغيروا من أوضاعهم بها ، أو يُعملوا فيها يد التهذيب إلا بقدر يسير لا يكاد يرى أو يُحَس فى مجال هذه الحياة التى ظلت أمينة على مبادىء الفطرة ، حفيظة على أصولها فى مختلف الأزمنة والأحوال .

لهذا وجدت الدعوة الإسلامية فى هذه الجزيرة الجو الصالح لغرس مبادئها ، والنفوس المهيأة لاستقبال تعاليمها والتجاوب معها ، والانتفاع بها ، فما هى إلا سنوات معدودات حتى تفعل هذه الدعوة فعلها فتخرج للبشرية مكنون سرها ، وتزخر البادية بألوان الحياة ، وتسرى فى النفوس الخامدة جذوة المعرفة وأقباس الحكمة ، وما هى إلا ومضة من ومضات الزمن حتى تتحول هذه البقعة المجدبة المنعزلة عن العالم إلى جامعة تشرق منها شموس المعرفة ، ويتخرج فيها قادة العالم وأساتذة الإنسانية ، ومن ثَمَّ صار لزاماً على التاريخ أن يفتح فصلا جديداً فى سجله يسطر عليه أمجد ما عرفت البشرية من آيات العظمة والكمال فى تربية الأمم ، وسياسة الشعوب على مبادىء الحق والأخوة والمساواة .

فعلى الذين ينظرون فى معجزات الدعوة الإسلامية ، أن يضيفوا إلى تلك المعجزات هذه الحكمة السماوية التى اقتضت أن تجعل الجزيرة العربية الميدان الأول لتلك الدعوة ، بل إن لهم أن يعدوا ذلك أعظم معجزاتها ، إذ كان إليها

---

(١) الروم : ٣٠ .

الفضل الأول فى إنجاح الدعوة و إبلاغها الغاية المقدرة لها . . . فإنه مهما كانت الدعوة من القوة والسلامة ، ومهما كانت غاياتها ومقاصدها من الخير والنبل ، لا يمكن أن تغنى غَناءها وتبلغ أهدافها ، إلا إذا وجدت النفوس المهيأة لها ، المستعدة للتجاوب معها ، حتى يُمكَّن لها من أن تهز العواطف ، وتوقظ الوجدان وتثير ملكات التفكير . . وخذ لذلك مثلا ، من يتحدث إليك بلغة غريبة عنك ، إنه لا يستطيع أن يلتقى بك ولا أن يصلك به ، ولا أن ينفعك بشىء مما يقول و إن جرت على لسانه خوالد الحِكَم وجوامع الكلم ... وخذ لذلك مثلا أيضاً .. البذرة الطيبة من أكرم الثمر ، تنقلها إلى بيئة غير بيئتها ، وتغرسها فى أطيب مغرس ، وتتعهدها بكل ما تستطيع من عناية ورعاية ... وترقب مدارجها فى النمو . . ثم انظر فى كيانها ، وما تعطى من ثمر . . إنك لن تجد إلا ضعفاً فى النمو ، وقلة فى الثمر ، ورداءة فى النوع ! !

فنجاح الدعوة الإسلامية إنما يرجع إلى هذين الأمرين معاً : أولهما ما اشتملت عليه الدعوة من خصب فى المادة وسمو فى المبادئ ، وقوة فى الأداء وثانيهما ما احتفظت به الأمة العربية فى محيطها المعنوى والمادى من خصائص وصفات أفسحت لهذه الدعوة المجال الرحيب لإبراز آثارها وكشف مكنونها .

ولعله من الواضح اليسير بعد هذا أن ندرك فى روعة ودهش هذا الترابط العجيب ، وهذا التناسق الرائع ، وتلك الوحدة المتجانسة أروع التجانس فى ألوان تلك الصورة وظلالها ، حين تجمع بين رسول أمّى ، وقوم أميين ، و بيئة صحراوية ، وحياة متبدية تنزل على حكم الطبيعة وتستقبل فى لهفة وشوق ما تلقى إليها من دفعة غيث ، أو روحة نسمة فى وسط هذا الجدب المقيم ، وفى أعقاب الأعاصير اللافحة أو الزمهرير القاتل .

هذه الصورة لا يمسك أجزاءها ، ولا يؤلف بين أشتاتها ، ولا يحكم الصلة بينها إلا روح الفطرة يَرِفُّ عليها جميعاً ، و يسرى فى كيانها واحدة واحدة ... فى الرسول ، وفى الأمة العربية ، وفى الجزيرة العربية ، ثم فى مبادئ الشريعة الإسلامية ذاتها . . فكل منها جارٍ على سنن الفطرة ، أخذ بالنصيب الأوفى منها . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة « هو الذى بعث فى الأُمِّيين رسولا منهم يتلو عليهم آياتِه و يزكيهم و يعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ و إن كانوا من قبلُ لفى ضلال مُبين[1] » .

فالأمية فى الرسول، والأمية فى الأمة العربية ،والطبيعة الصحراوية للجزيرة ، والحياة التى يحياها أهل هذه الجزيرة ، كل أولئك قائم على سَمْتِ الفطرة وشاهد من شواهدها الواضحة ، وكل إلى كل قريب من قريب ، يأنس به ، و يميل إليه ، وتعالى الله أحكم الحاكمين « الله أعلَم حيث يجعلُ رسالَته[2] » .

ولقد يبدو فى هذا القول أن الرسالة الإسلامية — وهذه طبيعتها — لا تلائم إلا الأمم المتبدِّية والشعوب التى تحيا حياة الفطرة البدائية ، وأن مبادئ هذه الرسالة وأحكامها جاءت على نسَق هذه الحياة وجرت على أسلوب التفكير السائد فيها ، وأنها بهذه الصفة لا تجد لها مكانا فى دنيا المدنية والحضارة ، ولا تستقيم مع ما وصلت إليه العقول فى هذا العصر من انتصارات حاسمة فى ميادين العلوم والفنون ، حيث اصطبغت العقول والنفوس بأصباغ المذاهب والفلسفات ، وحيث تغير وجه الطبيعة وتوارت معالم الفطرة ، وأصبح لزاما على

---

(١) الجمعة : ٢ .

(٢) الأنعام : ١٢٤ .

من يود لنفسه مكانا فى هذه الحياة أن يأخذ بحضارة العصر ، و يعيش فى ظلها ، و إلا تركه الركب وحيدا فى العراء !

وفى هذا القول مغالطات مفضوحة يرددها الذين يكيدون لهذا الدين ، و يأخذون الدليل عليها من واقع المسلمين حين يشيرون إلى مكانهم الذليل فى هذا العالم ، وما هم عليه اليوم من تخلف وضعف ، وما بينهم و بين غيرهم من الأمم التى لا تدين بالإسلام من بون شاسع فى مجال الرقى المادى والمعنوى على السواء ! .

ولا نريد هنا أن ندافع عن المسلمين ، ولا أن نلتمس لهم العذر فى هذا التخلف الذى لا ينكر ، و إنما الذى يعنينا أن ننظر إلى هذا الدين فى ذاته وننظر إلى المبادىء التى ارتكز عليها ، فإذا استبانت سلامته وظهرت آياته وعجائبه فلا عليه إذا عميت عنه البصائر وضلت سبيله العقول .

وما ضر الوُرودَ وما عليها إذا المزكوم لم يطعَم شَذاها

نعم قام الدين الإسلامى على الفطرة ، والفطرة عنصر أصيل من عناصر الكيان البشرى تفيض عنها المشاعر والأحاسيس والأفكار والخيالات ، وتجرى فى محيطها تصرفات الإنسان وأعماله مدى الحياة .

وقد تتعرض هذه الفطرة لكثير من تصرفات الحياة وتجاربها فتقوى أو تضعف وتسلم أو تعطب ، ولكنها لا تموت أبداً بل تظل محتفظة بمادة الحياة فيها على أية صورة من الصور ، حتى إذا هبت عليها نسمة من نسمات الفطرة الأصيلة السليمة استروحت لها وانتعشت بها .

على أن الإسلام وقد جعل للفطرة المكان الأول فى دعوته لم يدخل فى حسابه هذه الفِطَر الضعيفة الخامدة ، بل نظر إلى أنضج الفطر وأنضرها وأقواها

فوجه إليها دعوته وساق إليها تعاليمه ، ونصبها لحمل هذه الرسالة والإفادة منها على أتم الوجوه وأكملها ، وإن الفطرة حين تكون على هذا المستوى العالى من الأصالة والسلامة ، إنما تكون قوة من قوى الحق ، وقبسا من أقباسه تتناول الحياة من أطرافها ، وتبلغ الغايات من أقرب الطرق وأيسرها . . وكثير من الناس سلمت لهم فطرتهم فأغنتهم عن معالجة الدروس ومواصلة البحث ، وقدر لهم أن يتقدموا فى الحياة إلى منازل الصدارة بين أولى العلم والحكمة .

فالفطرة التى نظر إليها الإسلام ، وغذاها بتعاليمه ، وجعلها تحمل رسالته ، قوة متشوقة إلى الكمال الإنسانى ، متطلعة إليه ، مستعدة للسمو والترقى إلى أبعد مدى يمكن أن يبلغه الإنسان بأحكم الوسائل وأعظمها ، وهذه هى الحكمة فى اختيار الجزيرة العربية ميدانا لهذه الدعوة حيث الفطرة السليمة التى ظلت محتفظة بكل خصائصها فى هذه الصحراء المنعزلة عن العالم ، وما تضطرب فيه أحواله التى لا تستقر على حال .

فمخطىء مسرف فى الخطأ من يظن بتعاليم الإسلام — وهو دين الفطرة — أن تلك التعاليم — لكى تحقق معنى الفطرة — إنما تقوم على السذاجة والسطحية الهزيلة الباهتة . . فإن تعاليم الإسلام على يسرها وسماحتها قوية غاية القوة . عميقة إلى أبعد حدود العمق ولكنها فى قوتها وعمقها أشبه بالبحر فى عظمته وصفائه تأخذه العين بنظرة واحدة ، وتنفذ إلى البعيد من أغواره ثم تستوحى منه النفس ما يروع القلب ويهز الوجدان ، ولكنه مع هذا أبعد من أن يُسبَر غوره ويكشف مكنونه ويعرف مداه ، وهكذا الشأن فى روائع الفنون الرفيعة . . تقع فى نفوس الناس جميعا ، وتثير مواطن الروعة والإعجاب فى كل نفس ، وان اختلفت نظرات الناس لها ، وتباينت حظوظهم

منها ، كل حسب استعداده . ولكنها على أى حال خير مشاع لا يحرم منه إنسان .

ولقد كانت هذه القوة فى مبادىء الإسلام ، وهذا العمق فى أحكامه ، وهذه الإحاطة الشاملة فى تشريعاته من الأمور التى لا ينتهى منها العجب والدهش ، ولا يفرغ منها مجال الجلال والروعة على مدى الأزمان ، فكان منها للعامة والخاصة موارد صافية تشفى الغليل وتنقع الصَّدى ، كما كان منها لأولى الفكر والنظر وأصحاب الدراسات والفلسفات ، مادة صالحة للنظر والبحث ، وكان ذلك سببا من أسباب اختلاف وجهات النظر فى أصول العقيدة وفروعها ، وهذا أمر طبيعى لا خطر منه فى ميدان العلم ، ولكنه حين يدخل دائرة الدين ، و يتناول العقيدة يصبح هذا الخلاف خطرا داهما لا تستقيم معه عقيدة ، ولا يستقر به دين ، فإن هذا الخلاف قد أشاع فى المسلمين الفرقة ، وألقى بينهم العداوة والبغضاء ، وجعلهم أحزاباً وشيعاً يذيق بعضهم بأس بعض ، ثم إن هذا البحث الجدلى من ناحية أخرى قدعقد المسائل السهلة الواضحة ، وألبسها لباس الغموض حيناً والإلغاز أحياناً ، حتى أصبح المقبل على هذه الشريعة ، المريد لها لا يستطيع الاتصال بها إلا بعد أن يسلك إليها طرقاً مُلتوية ، ودروباً مُعتمة ، وإلا بعد أن يبذل جهداً مضنيا فى الدرس والبحث ثم لا ينتهى به الأمر بعد هذا إلا إلى اضطراب وغموض ، وذلك أبعد ما يكون عن هذا الدين السمح الواضح .

التعقيد فى العقيدة

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ . . »

(قرآن كريم)

المنهج الذى سلكه علماء المسلمين فى دراسة الشريعة الإسلامية ، والوقوف على تعاليمها وأحكامها ، منهج على قائم على استخدام الملكات العقلية استخداماً عنيفاً مرهقاً ، لا هوادة فيه ، فهو يدفع بالعقل دفعاً إلى النظر والبحث فى أصول العقيدة الإسلامية ، وفى أحكام الشريعة وأسرارها ، وهو لهذا يديم النظر ، و يطيل الوقوف ، ويكثر من الافتراضات والتخيلات عند كل مسألة من مسائل هذا الدين حتى تُستَتم قواعدُ البحث العلمى الخالص ، و يستقيم منطقه . ومثل هذا المنهج من البحث جدير بالاحترام والتقدير حين يُراد به العلم للعلم ، وحين يطلب به الكشف عن حقائق الأشياء ، والوصول إلى أسرار الكون ، فإن هذا هو الصميم من رسالة العقل ، وهو سبيل الإنسانية الكريمة الواعية التى تنشد العزة والقوة ، وتطلب الترقى والكمال .

أما أن يُسلكَ هذا المسلك فى مجال الدين ، ووصل الخلق بالخالق ، فذلك ما تأباه طبيعة الدين — أى دين — وهذا الدين الحنيف على وجه خاص ! !

فالدين يقوم أولا وقبل كل شيء على إثارة العاطفة و إشباعها ، قبل أن يقوم على إيقاظ العقل و إقناعه . . ولن تجد العاطفة فى هذه الدراسات العقلية الجافة شيئاً يثيرها ويهز جوانبها ، و إنما تغتذى العواطف من هذه

الينابيع الثَّرَّة الصافية التى تتسرب إليها من وراء تلك النظرات العميقة الحالمة فى رحاب هذا الكون العظيم ، وما يزخر به من ألوان الجمال والحسن ، وما يشتمل عليه من آيات العظمة والجلال ، وما يتفرد به من روائع القدرة وبدائع الحكمة . . إن مثل هذه النظرات هى التى تُروى القلب بالإيمان ، وتَمُدّه باليقين ، وتفتح له طريق السماء .. أما العقل وحده فهيهات له أن يبلغ فى هذا المجال شيئاً ينقع صدى أو يشفى غليلا ... وسنرى فى ثنايا هذا البحث لِمَ عجزت الدراسات الدينية العقلية المرتكزة على قواعد المنطق وأساليب الفلسفة — عن أن تقيم فى نفوس أصحابها ديناً قِيَماً يملأ القلب خشية وجلالا ، ويصل المخلوق بخالقه بأوثق الصلات وأقوى الأسباب ..

كما سندرك أسباب هذا الفشل الذريع الذى مُنِيَتْ به محاولات هؤلاء العلماء فى مقام الوعظ والتذكير للتأثير على العامة ، وإقامتهم على مناهج الشريعة وأحكام الدين . وفى هذا ما يفسر الحكمة المأثورة : « اللهم إيماناً كإيمان العجائز » ذلك الإيمان القائم على خلجات الصدور ، وخفقات القلوب .

لقد شحذ علماء المسلمين جميع ملكاتهم العقلية لدراسة الدين ، واستنباط أحكامه من الكتاب والسنة ، وأعدوا أنفسهم إعداداً كاملا لهذا الجهاد الطويل الذى فرغوا له بقلوبهم وعقولهم ، وقطعوا فى سبيله العمر ، وعُنوا من أجله بالنظر فى كثير من العلوم العقلية التى سبقتهم إليها أمم عريقة فى ميادين العلم ، فدرسوا علوم الفلسفة والمنطق دراسة واسعة مستفيضة ، ليقوى نظرهم ، وتشتد حجتهم فى مجال الدفاع عن الدين ضد خصومه والمتألبين عليه من غير المسلمين ، وفى مجال الخصومة المستعرة بين أصحاب المذاهب الدينية والسياسية من المسلمين .

وكان من أثر هذا الصراع العقلى العنيف تلك الكثرة البالغة من المؤلفات فى التوحيد والأصول ، والفقه ، والتفسير ، والحديث ، بل واللغة ، والنحو ، والبلاغة ، والفلسفة ، والمنطق ، والفلك ، والنجوم ، والرياضة وغيرها . وكل هذه العلوم البعيدة عن الدين لم تُدرس تلك الدراسة المستفيضة ، ولم يُعن بها هذه العناية البالغة إلا لخدمة الدين ولغة الدين .

وفى الحق أن هذه الظاهرة فى الأمة العربية — وخاصة فى العصر العباسى — جديرة بالنظر الدقيق ، فما عَرف الناس فى ديانة من الديانات أن شُغِل بها علماؤها إلى هذا الحد الذى صرفهم عن النظر فى أى علم أو فن لا يخدم الدين أو لغة الدين . . وهذا مايفسر لنا هذا التقصير من علماء المسلمين — حتى فى أزهى عصور الإسلام — عن التأليف فى علوم الحياة كالهندسة والطبيعة والكيمياء وغيرها مما عُنيتْ به الأمم الآخذة بأسباب الحضارة والتمدن ، وكان هذا هو سبيلها إلى منازل العزة والسيادة فى العصر الحديث .

***

قد يخيل إلى الذين يأخذون بظواهر الحال من الأمور ، أن أكثر الناس صلة بالله ورعاية لحرماته هم أولئك الذين يَعبُّون من هذه الدراسات الجافة عبا ، ويُوقِرون عقولهم بمسائلها المتشعبة المتشابكة ، ويحفظون ما تستطيع ملكاتهم حفظه من عويص المشكلات ، وغرائب المعضلات . . ولكن الأمر على غير هذا . . فإن هذه الدراسات إن تكن قد أتخمت العقل وأثقلته ، وألقت عليه من مباحثها قولا ثقيلا ، إلا أنها لم تمس القلب ولم تَصُبّه من صوبها بقطرات تنقع صداه ، وتروى غليله ، فظل فى جفافه مقفرا ، لا ينبت زهراً ولا يخرج ثمراً . . وهيهات أن يكون إيمان إذا أقفر القلب ، وأجدب الوجدان .

تنظر فى القرآن الكريم فترى هذا المعنى المفرّق بين العقل والقلب فى تناول الإيمان والاتصال بالخالق . . فالقلب دائماً فى نظر القرآن هو منزل الإيمان و إليه تتوجه لفتات السماء ، وعليه تهمى غيوثها ، فإن كان على الصحة والسلامة امتلأ بجلال الحق ، وأشرق بنور المعرفة ، و إن كان به مرض طمس عليه وأفسد فطرته ؛ ظل فى عمايته وضلاله . . وفى القرآن سبعة وعشرون ومائة موضع ذكر فيها القلب مقترنا بالإيمان : مقبلا عليه ، أو مجافيا له . .

فنى معرض القلوب المتجهة إلى الإيمان يقول الله تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . . ألا بذكر الله تطمئن القلوب[1] » ويقول جل شأنه : « ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله[2] » ويقول سبحانه على لسان إبراهيم « ولَـٰكِنْ لِيطمئنَّ قلبي[3] » .

وفى معرض القلوب الزائغة المعرضة يقول سبحانه وتعالى : « أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا[4] » ويقول : « أم على قلوب أقفالها[5] » ويقول: « ختم الله على قلوبهم[6] » ويقول : « فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التى فى الصدور[7] » !

وهكذا تتوارد الآيات فى بيان ما بين القلب والإيمان من صلات .

كذلك تجيء فى القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى القلب الذى يتفتح للإيمان فيُشيعه فى كيان الإنسان ويملأ به يقينه ، يقول جل شأنه مخاطباً النبى

---

(١) الرعد : ٢٨ (٢) الزمر : ٢٣
(٣) البقرة : ٢٦ (٤) النور : ٥٠
(٥) محمد : ٢٤ (٦) البقرة : ٧
(٧) الحج : ٤٦

الكريم : « ألم نشرح لك صدرك[1] » ويقول على لسان موسى : « ربِّ اشرح لى صدرى ويسِّرْ لى أمرى واحْلُلْ عقدةً من لسانى[2] » والصدر لا ينشرح إلا إذا خفق القلب وانتعشت المشاعر !

أما العقل فإنه لم يذكر فى القرآن على هذه الصورة المستقلة ، ولم يعترف له بذاتية خاصة ، فلم ترد فى القرآن لفظة « العقل » ولم يوجه إليه أى خطاب — وإنما ذكر متلبساً بالكيان الإنسانى كله بما اشتمل عليه من مشاعر وأحاسيس — حتى لا يستقل العقل وحده بالنظر فى ملكوت السموات والأرض والتدبر فى آيات الكون ، وإنما يصحبه فى جَولاته تلك الكيانُ الإنسانى كله بمدركاته ومشاعره .

فما ذكر فى القرآن الكريم عن العقل لا يتجاوز هذه اللفتات التى تجىء فى فواصل الآيات مثل « لعلكم تعقلون » ، « إن كنتم تعقلون » وهكذا .

والذى نستخلصه من هذا أن العقل وما يُحصِّل من علوم لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله ولا أن يُنزِل منازل اليقين إلا إذا اتصلت معارفه هذه بالقلب ومست جوانبه ، وسرت فى كيانه — أما إذا ظلت هذه المعارف فى دائرة العقل وحده فإنها قد تستطيع أن تخلق الرجل العالم ، ولكنها لا تستطيع أن تقدم لنا الرجل المؤمن .

وقد ينظر بعض الناس فى الآية الكريمة « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ[3] » فيرون غير هذا الرأى ، ويقولون إن منطوق الآية يجزم بأن أشد الناس خشية لله هم العلماء . . فكيف يستقيم مع هذا القول بأن العلم لا يحقق الإيمان والخشية من الله .

---

(١) الشرح : ١ (٢) طه : ٢٥ — ٢٧ (٣) فاطر : ٢٨

وهذه الآية الكريمة دليل لنا لا علينا . ، فإن العلم الذى تشير إليه الآية إنما هو العلم الذى يفيض من القلب . . لا العلم المجرد المحجوز فى دائرة العقل والمحكوم بمنطقه العنيف . . فإن العلم على هذه الصورة يكون بارداً جامداً لا يحرك خاطراً ، ولا يثير إحساساً ، ولا يبعث على خشية أو رجاء ! وإنما ذلك موطنه القلب وحده .

لم يكن صحابة رسول الله : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وابن عباس ، وزيد ابن ثابت و بلال وأبو موسى وغيرهم من أئمة هذه الملّة ، لم يكن هؤلاء أصحاب دراسات وفلسفات ، ولم يكن لهم فى مجال البحث النظرى التجريدى مكان . . ومع ذلك فقد كانوا أكثر الناس فهما للشريعة ، وأعلمهم بدقائقها وأسرارها ، وأقربهم إلى الكمال الإنسانى فى الصلة بالله والعمل بكتابه وسنة رسوله . . وليس ذلك إلا لأن لهم قلوباً واعية و بصائر مشرقة . تعرف طريق الحق وتستشعر مواطنه . . يعينها فى ذلك عقل راجح ونظر سليم . . فلم تعرض مسألة من مسائل الشريعة ولا مشكلة من مشكلاتها إلا لقيها هؤلاء الأئمة — رضوان الله عليهم — بقلوبهم قبل أن يلقوها بعقولهم . . فإذا الرأى السديد والنظر السليم . . وإذا القول الفصل ، والحكم العدل .

إنه لمن الخطأ أن يظن أننا نزرى بالعقل ، ونقلل من خطره فى مجال النظر الدينى ، وكيف والعقل هو الطريق إلى معرفة الله والوقوف على حدود شريعته وإنما نريد أن يقتصد العقل فى طغيانه على القلب ، فلا تتحول الإنسانية فى مجال الاتجاه إلى الله إلى آلة حاسبة كاتبة ، لا تتأثر ولا تحس بما تحسب أو تكتب ، نريد أن تتفتح ملكات العقل بالمعرفة والعلم ، وأن يكون للقلب مشاركة كاملة فى هذا الذى يدور فى محيط العقل من أفكار ، ذلك هو العلم

الذى تشير إليه الآية الكريمة ، وتراه نعتاً صالحاً لبعث الخشية والخوف من الله فى قلوب المؤمنين الذين أشار الله إليهم بقوله : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » .

لا بد للقلب أن يخفق ولا بد للمشاعر أن ترِفّ إذا أريد أن يقوم فى الناس إيمان بالله وخشية لعظمته وجلاله . . ولن يخفق القلب أو يرف الوجدان إلا فى مواطن الجمال والجلال ، تلك المواطن التى تقشعر لها الأبدان خوفاً وفزعاً ، أو تلين لها الجلود رجاء ورضا .. هنالك يصبح المرء ويمسى وفى طواياه هذه الأحاسيس الحية تشب وتنمو حتى تملك عليه زمام نفسه ، وتصبح له ملكة موجهة .. ذلك هو المؤمن الحق الذى ذاق حلاوة الإيمان وعرف حقيقته .

* * *

ولقد تكون هذه الدراسات الدينية الجافة — مع عقمها فى مجال الحياة الروحية — نافعة فى شحذ الملكات العقلية لما فيها من عمق البحث ، ودقة التفكير وبراعة المنطق ، وروعة الخيال .

إنها سبيل أصحاب الفلسفات ، وميدان أصحاب الجدل ، ولكنها لا تستقيم أبداً فى مجال البحث عن الله .. فإن ذلك سبيله — كما قلنا — النظر العميق الحالم من خلال القلب النابض والوجدان المنتعش ، فذلك هو الذى يصل المخلوق بخالقه ، ويقيمه أبداً على خشية ورجاء من الله .

* * *

وقع بين علماء المسلمين هذا الصراع العقلى الرهيب فى ذات الله وفى صفاته ودارت بهم ملاحم الحرب سنين طويلة استخدموا فيها كل وسيلة من وسائل

الغلب والنصر ، وكان من نتاج هذا الصراع أن انقسم المسلمون إلى شيع وأحزاب يكفر بعضها بعضاً ، ويَشْجُب بعضها على بعض ، ثم تَضْرَى بين هذه الفرق أسباب العداوة والشحناء ، فيتجاوزون الصراع العقلى إلى الصراع المادى فتراق الدماء ، وتزهق الأرواح ، ثم تنجلى هذه المعارك جميعها عن فرقة فى جماعة المسلمين لا يجتمع لها مع الزمن شمل ، ولا يُرأبُ لها صدع ويصاب المجتمع الإسلامى من هذا كله بهزة عنيفة فى صميم العقيدة يكون من نتاجها خروج جماعات كثيرة عن الدين فى غير مبالاة أو تحرج ، وتظهر فى الدولة الإسلامية طوائف الملاحدة والزنادقة وأصحاب البدع والأهواء من غلاة الشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والمعتزلة ، والمرجئة ، وغيرها من الطوائف والفرق التى تعددت مذاهبها وتشعبت جماعاتها ، وكل فرقة من هذه الفرق ترى أنها الفرقة الناجية وما عداها فى الضلال ، وإلى النار ، مستندة فى هذا إلى الحديث الشريف « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة ، والباقون هلكى » قيل ومن الناجية ؟ قال : « أهل السنة والجماعة » قيل : وما السنة والجماعة ؟ قال : « ما أنا عليه اليوم وأصحابى » .

وكأنَّ كل فرقة هى المعنية بهذا الحديث ، القائمة على شرطه ، المقدر لها النجاة من بين الفرق الهالكة جميعاً .

وكان هذا الحال الذى صار إليه أمر المسلمين من الفُرقة فى الرأى ، والاضطراب فى العقيدة أمراً طبيعياً لهذا الصراع العقلى الذى كان ميدانه البحث فى الله .

ما هو ؟ وما صفاته ؟ وما الصلة بين الذات والصفات ؟ وهل الصفات

عين الذات أم الصفات غير الذات ؟ و إذا كانت عينها فكيف تنفصل عنها ؟ وكيف يكون تصورها ؟ و إذا كانت غيرها فهل هى قديمة بقدم الذات ؟ و إذا كانت قديمة فكيف يتعدد القديم ؟ و إذا كانت حادثة فهل كانت الذات بغير صفات ؟ ... ولا تزال الأسئلة تتوالد وتدور، والإجابات تتعدد وتختلف ، والصراع يحتدم و يشتد وتتسع دائرته ، فينتقل إلى ميادين أخرى فى البحث عن القدر ، وفى الخير والشر ، وفى الجبر والاختيار ، و يصبح الناس و يمسون وهم فى حُمَّى هذا الجدل المسعور ، وفى دوامة تغلى مراجلها باللجاج والمصاولة .. و يقع العامة والخاصة من ذلك فى بلاء شامل ، وحيرة داهمة تكاد تتعطل معها كل ملكات المرء وحواسه .. وأنَّى للإنسان أن يجد على هذه الفتنة هدى ، ومن أين له أن يبصر طريقه وقد طُمست معالمه ، وتقطعت وسائله ؟ أهو مخير يفعل ما يشاء و يدع ما يشاء ، أم هو مجبر محكوم عليه بما قُدِّر عليه لا انفكاك له منه ، وهل الشر من صنع الله أم من كسب البشر ؟ وهل من حكمة الله وعدله أن يخلق الشر و يدفعنا إليه ؟ و إذا كان الأمر كذلك فهل نستحق العقاب على فعل الشر وليس لنا اختيار فيه ؟ .. إلى غير ذلك من مئات الأسئلة المحيِّرة وآلاف مؤلفة من الأجوبة عليها ، وكلها متدافعة متناقضة ، يضرب بعضها وجه بعض .

إنها فتنة وقع منها الإسلام والمسلمون فى بلاء عظيم ، ووجد فيها أعداء هذا الدين فرصة سانحة للكيد له والنيل منه ، فأذكوا نار هذه الحرب ، وأوسعوا فى شُقة الخلافات بين جماعات المسلمين ؛ واندس كثير من الملاحدة والزنادقة بين الفرق والطوائف المختلفة ، يظهرون الإسلام و يبطنون له العداوة

والبغضاء ، و يطلعون على الناس بآراء غريبة ، ومعتقدات فاسدة ، تزيد العقول حيرة واضطرابا ، ويذيعون فى المجتمع الإسلامى آلافا مؤلفة من الكتب والرسائل التى تضاف إلى المكتبة الإسلامية ، وتحسب فى أمهات علوم الشريعة وأصولها ، ثم تُنصَب للناس لتكون معالم الهدى إلى الله ، وطريق التعرف إليه ، وهى المحملة بهذه الأباطيل والضلالات .

إن هذا الميراث من الكتب والرسائل التى تناولت العقيدة الإسلامية هذا التناول المعوج ، وأباحت للعقل أن يخوض فى ذات الله ، ويتعرض للبحث فى القدر ، والخير ، والشر ، والجبر ، والاختيار ، ويُعرِضَ عن محكم الكتاب الكريم ويتبع متشابهه . . . إن هذه الكتب هى التى دخل منها الشيطان على المجتمع الإسلامى ، فشغل المسلمين بما فيها من عبث وهَوَس عن النظر الجدى المثمر فى ملكوت السموات والأرض ، وألقى بينهم العداوة والبغضاء ، وجعلهم شيعا وفرقا ، لا يزال التناحر بينها متصلا ، والشقاق قائما وهذا ما قعد بالمسلمين عن اللحاق بركب الحياة ، وأصارهم إلى ما هم فيه من ضعف وخذلان .

وحسبك أن تقلب النظر فى المحيط الإسلامى ، فترى مئات من الطوائف والجماعات كل واحدة تَدَّعى لها دعوى فى الإسلام ، وتذهب فيه مذهبا وتتخذ لأنصارها ودعاتها شارات وأزياء وصحفا تعلن عنها وتدعو لها ، بل ودور عبادة خاصة تؤدى فيها الطقوس الدينية على النحو الذى يرسمه مذهبها ويحدده رأيها ، كما نرى ذلك فى طوائف البهائية ، والقاديانية ، والشيعة ، و بعض المذاهب الصوفية ، وغيرها وكلها مضافة إلى الإسلام محسوبة عليه .

لا سبيل إلى الخلاص من هذا البلاء إلا إذا أخذ المسلمون دينهم عن موارده الصافية ، وينابيعه العذاب ، وإلا إذا تناولوه هذا التناول السمح الواضح وبعدوا به عن مواطن الإبهام والإلغاز التى تفيض بها هوسات الفلسفة الجافة الفارغة ، وأقاموا عقيدتهم على وحى الفطرة وإلهامها ، فإنها هى الرائد الذى لا يكذبُ أهلَه فى توجيه القلوب إلى الله ووصلها به .

أما هذه الهَمْهَمَات والشَّطَحات التى تدور فى كثير من الرءوس المنتمية إلى الإسلام ، فليست إلا هُراء يَهذِى به خبثاء يمكرون بالعامة ، ويسخرونهم لمطامعهم وأهوائهم ، ويتخذون منهم أدوات إلى نيل المآرب ، وتحقيق الأطماع . . . ولن يستقيم للمسلم دين ولن تسلم له دنيا إلا إذا لقى الله بقلب سليم ، قد خَلَصَ له ، وتخلص من هذه الأغلال التى تربطه بهذه الزُّمَرِ من أصحاب المذاهب والبدع ، ودخل فى جماعة المسلمين عامةً غير مشدود إلى جماعة أو محسوب على فرقة .

لا كهنوتية فى الإسلام

تحمل العقيدة الإسلامية فى صميمها دعوة صريحة إلى تحرير الإنسانية وتخليصها من أغلال الاستبداد المادى والروحى المتسلط عليها من ذوى المطامع وأصحاب النفوذ ، الذين لا يخلو منهم مجتمع إنسانى فى جميع الأمم وعلى مختلف العصور .

فالناس أبداً رجلان : قائد ومقود ، ومتبوع وتبيع . وفى كل طائفة أو أمة هذان الصنفان أبد الدهر : القادة ، وهم أصحاب السطوة والنفوذ ، وهم رءوس المجتمع وقدوته ، بيدهم زمام الأمور ، وإليهم مصائرها — والعامة ، وهم السواد الأعظم فى المجتمعات ، يعيشون دائماً فى ظل غيرهم من أصحاب السلطان المادى أو المعنوى يسخرونهم كيف يشاءون ، ويدفعون بهم إلى حيث يريدون ، دون أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ودون أن يقول قائل منهم إلى أين نتجه ؟ وإلى أين المصير ؟

هكذا الناس منذ كانوا ، واليوم ، وغداً ، وبعد غد ، وإلى أن ينتهى هذا العالم إلى نهايته المقدرة . . سادة أصحاب صولة وسلطان ، ومسودون لا حول لهم ولا طول .

* * *

ولا تحسبن القوة ، والبطش من أسباب هذا الاستسلام الذليل ، ودواعى هذا الانقياد الأعمى الذى عاش فيه الدهماء ، ونزلوا على حكمه ، وما يفرضه من ألوان الذلة والهوان . . وإذا كان التاريخ يحدث عن أمم وشعوب خضعت

لسيف الباطش الجبار ، وذلت ليد الإرهاب والتنكيل . . فإن التاريخ أيضاً يحدث حديثاً طويلا عن أمم وشعوب قد ذلت أيما إذلال ، وخضعت غاية الخضوع لنفوذ المشعوذين والمضللين من أصحاب المذاهب الدينية والاجتماعية . . المنحرف منها وغير المنحرف ، دون أن يكون لهؤلاء المشعوذين المضللين سلاح غير معسول القول ، ومكذوب الأمانى ، وغير التدليس والخداع الملفوف فى ثوب من الرياء والنفاق .

وصدق شوقى إذ يقول :

سُخَّرُ الناس ، وإن لم يعلموا لقوىّ أو غوىّ أو مبين
والجماعات مطايا المرتقى للمعالى وجسور العابرين

وما أصدق شوقى وأروعه فى قوله : « وإن لم يعلموا » فإن الإنسان ينساق وراء الجماعة دون وعى ، مدفوعاً بغريزة المحاكاة والتقليد ، مسوقاً بشعور الجماعة فالجماعة شعور عام يندمج فيه الإنسان بكيانه ويصبح جزءاً منه ، على حين يختفى شعوره ، وتتوارى شخصيته ، ويصبح ولا إرادة له ولا رأى إلا ما ترى الجماعة وتريد ، ولقد كشف علم النفس الحديث للإنسان عن عقلين : عقل فردى ، هو عقله الخاص الذى يعيش فيه لنفسه ويفكر به حسب تقديره ، وعقل جمعى ، هو العقل الذى يعيش فيه مع الجماعة ، ويشاركها الرأى والنظر ، وهذا العقل الجمعى فى الإنسان مشدود دائماً إلى العقل العام للجماعة لا يستطيع الإنسان أن يَتَخلَّصَ به أو يحرره إلا فى القليل النادر من الناس ، من أصحاب الشخصيات الفذة المتميزة بذكائها وعبقريتها .

ولقد كشف القرآن الكريم عن هذه الظاهرة فى الإنسانية ، وصور لنا مدى تأثيرها على تفكير الناس وأسلوب حياتهم ، فصور هذين الصنفين من

الناس : القادة الذين يسوقون العامة إلى مواطن الفتنة والضلال ، والعامة الذين يخضعون لهذا الإذلال العقلى المهين . . والقرآن فى هذا التصوير يريد أن يلفت الإنسان إلى نفسه ، ويبصره بموقفه من الحياة ، أسائق هو أم مسوق ؟ وعلى الخير هو أم على الشر ؟ فإن الصور التى عرضها القرآن الكريم لهذا الاختصام بين فريق الضالين والمضللين ، تجعل الإنسان يفزع من هذا الموقف الرهيب ، ويطلب السلامة لنفسه من أن يكون فى أحد الفريقين ، فكلاهما فى ضلال وإلى النار ، فلا بد أن يبحث له عن مخلص ، وأن ينسحب من هذا الموكب المساق إلى الهلاك .

أنظر إلى الفريقين معاً فى الآية الكريمة : « وإذ يتحاجُّون فى النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ! فهل أنتم مُغْنونَ عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كلٌّ فيها إن اللهَ قد حكم بين العبادِ[1] » . تجد مدى هذه الذلة التى انطبعت فى نفوس المستضعفين الأذلاء فى الدنيا حتى لقد صحبتهم إلى الدار الآخرة فمدوا أيديهم فى استجداء مهين إلى سادتهم يطلبون الغوث والنجدة من هذا العذاب المحيط : فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ وأنَّى ؟ ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ .

وانظر فى الآية الكريمة : « قال الذين حَقَّ عليهمُ القولُ : ربنا هؤلاء الذين أغْوَيْنا ، أغويناهم كما غَوَيْنا ، تبرأنا إليك ! ما كانوا إيانا يعبدون ، وقيل ادعوا شُرَكاءَكم فدَعوْهم فلم يستجيبوا لهم ورأَوُا العذابَ لو أنهم كانوا يهتدون[2] » تجد كيف يسارع أئمة الكفر إلى التنصل من أوليائهم وأتباعهم

---

(١) غافر : ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) القصص : ٦٣ ، ٦٤ .

والتحلل من التبعة التى احتملوها فى حياتهم ، وكيف تنكشف حالهم فيعرفون أنهم هم المقصودون بهذا السؤال فى قوله تعالى ، « أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟[١] » ويتولون الإجابة عليه ، وكان من المتوقع أن يجيب عليه المسئولون من الأولياء والأتباع ، ولكنها اللهفة وسوء الحال وانكشاف مصيرهم تجعلهم يقولون : ها نحن أولاء ! ثم يبسطون لأنفسهم مجال العذر إذ يقولون : « ربنا هؤلاء الذين أغوينا ، أغويناهم كما غوينا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون » .

وانظر كيف يتضاعف العذاب وتشتد الحسرة حين يُنادَى هؤلاء المستضعفون : « ادعوا شركاءكم .. فدعوهم .. فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب » وانظر مدى الألم الذى ينصب عليهم حين يفتح لهم باب الرجاء بدعوة شركائهم ويدخل فى حسابهم أنهم فى سبيل النجاة ، وأن شركاءهم سيتولّون الأمر عنهم ، أو يشاركونهم فيه ، ولكن سرعان ما يتبدد هذا السراب الخادع ، وتتكشف الحقيقة المؤلمة : « فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ! » لا أحد « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه[٢] » وتظهر المفاجأة ، ويبرز الشر من حيث كان يتوقع الخير . . . دَعَوْا شركاءهم ، فلم يستجيبوا . . وليس هذا فحسب بل طلع عليهم الشر مكشراً عن أنيابه : « ورأوا العذاب » وإنه لعذاب أليم ، يأخذ بالنواصى والأقدام .

وفى القرآن صور كثيرة لهذه المواقف المزعجة لمواكب الضلال وما تشتمل عليه من كبار المضللين وصغار النفوس والأحلام !

---

(١) القصص : ٦٢ . (٢) عبس : ٣٧ .

« وقال الذين كفروا ربنا أرِنَا اللذَيْنِ أضلَّانا من الجن والإنس نجعلْهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين[1] » .

« وقالوا ربَّنا إنا أطعْنا سادتَنا وكبراءنا فأَضلُّونا السبيلا ، ربنا آتِهِم ضعفين من العذاب والْعنهم لعناً كبيراً[2] »

فى هذين الموقفين صرخات مدوية يرسلها أولئك « الإمَّعات » الذين خدعوا فى سادتهم وكبرائهم حين يشتد عليهم لفح جهنم ، ويأخذهم وقْدُ السعير ، فلا يجدون متنفساً إلا هذه اللعنات يرسلونها وراء السادات والكبراء.

* * *

ولم يكن عذاب الله ونكيره للأتباع بأقل منه للمتبوعين من الضعفاء الأذلاء ، إذ مكنوهم من أنفسهم وباعوهم عقولهم وقلوبهم ، فهم مجرمون فى حق إنسانيتهم لا يدفع عنهم العذاب عذر : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً[3] » .

يريد الله بهذا كله أن يحرر الإنسان من العبودية ، ويطهر قلبه ، وعقله من دخائل السوء وهمزات الْمُغْوين والمضللين ، فيرفع الإنسان بصره إلى الله خالصاً ، يراه بعقله هو ، وبقلبه هو ، رأىَ حق ويقين ، فيتسرب الإيمان إلى شعوره قويًّا مشرقاً ، وينزل اليقين من كيانه آمنا مطمئنا ، وهذا هو المؤمن الذى يريده الإسلام ويعتز به ، المسلم الذى لا يستند إلى داعية ، ولا يرتكن إلى زعيم ، فإن أخَسَّ النباتات تلك الحشائش المتسلقة التى لا تخرج زهراً ،

(١) فصلت : ٢٩ (٢) الأحزاب : ٦٧ ، ٦٨ (٣) النساء : ٩٧

ولا تطلع ثمراً ، وكذلك الإنسان الذى يعيش فى الناس ظلا متحركا ، وشبحاً هائماً . . لا يُرى له كيان ، ولا يُحس له وجود .

وليس الطريق إلى الله بالذى يعجز المرء عن ارتياده أو الوصول إلى غايته ، فهو طريق مستقيم ما استقامت فى الإنسان فطرته ، ولم يطمسها ضلال عارض أو هوى مقيم ، وهو طريق مشرق ما أشرق فى الانسان عقله فلم تخمد جذوته نزعات التقليد وموروث العادات .

فالطريق إلى الله طريق واضح المعالم ، قريب الغايات ، تقوم على جوانبه منارات الهدى ، ودلائل الهداية ، وتلوح فى سمائه أمارات التوجيه والتسديد ، ومخايل الأنس والاطمئنان . . إذا أخلص الإنسان نيته ، واستمع لهتاف عقله ، وخفقات قلبه .

وليس فى الإسلام ولا من الإسلام هذا النظام الذى يقوم على الطبقات الدينية ، فالمسلمون أمام الله سواء ، لا فضل لإنسان على إنسان إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وليس فى الإسلام ولا من الإسلام هذا التكتل الطائفى الذى يمزق شمل المسلمين ، ويجعل منهم شيعاً وأحزاباً ، ويجعل فى كل طائفة حواريِّين، لهم على النفوس سلطان ، ولهم فى مجال الحب الإلهى زلفى ومقام ، وهم بهذا الزيف يعيشون ، وعليه فى مجال الرزق يعتمدون .

ليس فى الإسلام ولا من الإسلام هذا الاستعباد الدينى الذى يسخر الناس لداعية أو دعى ، يستخدمهم كما تستخدم الأنعام ، ويستغلهم كما تستغل الأرض ، فيُجْبىَ إليه ثمرُ كدِّهم ، ونتاج عملهم ، ينعم به ويعيش فيه عيش الملوك المترفين .

وفى الإسلام اليوم طوائف كثيرة تخضع لهذا الاستعمار الدينى ، يجب أن يعمل المسلمون على تحريرها ، فإن هذا الاستعمار هو شر ما تبلى به جماعة من الجماعات ، إذا حل بأمة أو جماعة قتل منها كل ما فى الإنسان من مشاعر وأحاسيس ، وأحالها دُمًى متحركة إلى غير غاية .

وإذا قدر للمسلمين أن ينجحوا فى هذا المجال ، فيحرروا هذه الجماعات الكثيرة من نفوذ أصحاب المذاهب والبدع فى مصر ، وفى غير مصر من بلاد المسلمين فى الشرق والغرب . . كان ذلك إيذاناً بوحدة قوية تتجه جميعها إلى الله فى يقين ثابت ، وإيمان صادق ، وتستمد قوتها وسلطانها من أقوى الأقوياء ، وتأخذ مكانها فى الحياة ، وتعيد للإسلام مجده الأول .

تشريح الشريعة

العقلية الفلسفية التى سيطرت على التفكير الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى وما بعده ، وحاولت أن تقيم العقيدة الإسلامية على منطق المذاهب الكلامية ، والتصورات الذهنية ، هى نفسها العقلية التى تناولت الشريعة الإسلامية فى عباداتها ، ومعاملاتها ، وآدابها ، وأجرت عليها هذا الأسلوب الجاف العنيف من البحث الذى لا يقف عند حد ، ولا يرضى بالنظر إلى أصول المسائل الدينية وأمهاتها نظرة عامة يستشعر منها جلال الحق ، وروعة الحكمة ، بل يتجاوز هذا إلى التحليل والتفريع ، حتى تتوالد الصور وتتعدد الأشكال ، وتجرى فى طريق الرياضة الذهنية والمقابلات العددية .

هذه العقلية الفلسفية هى التى قامت على الشريعة الإسلامية تَشْرَحُها ، وترتبها ، وتحدد حدودها ، وتوضح سبيلها ، وهى التى فرضت نفسها على جمهور المسلمين ، وتولت تقديم أحكام الشريعة الإسلامية ومبادئها على هذه الصورة التى يعيش عليها المجتمع الإسلامى اليوم ، ويأخذ عنها تعاليم دينه .

وكما أصيبت العقيدة الإسلامية من وراء هذا الجدل الفلسفى العقيم — فى مجال الدين — بالحيرة والقلق والاضطراب ، وأصيب منه المسلمون بهذه الفرقة التى لا يرجى لها اجتماع ، حيث بَعُدت مسافات الخلف بينهم وتعددت مذاهب الرأى فيهم ، وحيث صار المسلمون أمما ينكر بعضها بعضاً ويلعن بعضها بعضاً ، وحُقَّ للشاعر أن يقول فيها :

لقد طُفْت فى تلك المعاهد كلها وسيّرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذَقَن أو قارعاً سنَّ نادم

كذلك انتهت حقائق الشريعة الإسلامية — من عبادات ومعاملات — فى معرض هذا النظر الفلسفى إلى ألغاز مبهمة ، ومسائل معقدة أشبه بالمعادلات الجبرية والنظريات الهندسية التى تحتاج إلى عقول خاصة متخصصة لدراستها والنظر فيها .

وكان من أثر هذا العرض للشريعة الإسلامية على تلك الصورة ، وإلزام المجتمع الأخذ بها والسير عليها ، والانضواء إلى إمام من أئمتها ، كان من أثر هذا : الخروجُ بالشريعة الإسلامية عن طبيعتها القائمة على اليسر والسماحة ، وإلباسُها لباس التكلف والتشدد الذى يرهق النفوس ، ويعنْفُ بها ، ويجعل الدين عبئاً ثقيلا عليها ، لا تُقبل على ما يدعو إليه من عبادات وطاعات إلا متكرهة متثاقلة ، فى حركات آلية ، وعبارات ميتة ، لا تثير شعوراً ، ولا تحرك وجداناً .

مع أن الدين فى حقيقته لا يقوم فى النفس مقاماً محموداً ، ولا يؤتى ثمرة طيبة ، ولا يعمل فى سلوك الإنسان وتوجيهه عملا يذكر ، إلا إذا مس شَغَاف القلب وملأ شعابه ، ولن يكون هذا أبداً إلا إذا قام الدين على الحب الخالص له ، والتقدير لأحكامه ، والإعجاب بمبادئه ، والشوق الروحى إلى الاتصال بالملأ الأعلى عن طريق هذا الدين .

وهذا من مقتضياته أن يكون الدين جميلا مشرق الجمال ، واضح السِّمات ، خالصاً من شوائب الصنعة ، خالياً من عوادى المسخ والتعقيد .

فإذا كانت أحكام الدين وتعاليمه على تلك الصورة المشرقة من اليسر والسماحة والجمال ، أقبلت النفس عليه ، وتفتح القلب له ، وانتعشت الجوارح

به ، وتحول الإنسان إلى طاقة روحية شفيفة تتفتح لها أسباب الاتصال بالملأ الأعلى من أقرب طريق .

ولعل هذا الفهم لرسالة الدين ووظيفة العبادات وغاياتها ، هو الذى حدا بالأقدمين إلى أداء الصلوات لمعبوديهم على هذه الصورة الراقصة الممتزجة بأنغام الموسيقى وأهازيج الألحان .

فالفراعنة قد جعلوا من صلاتهم حركات راقصة تؤدى فى صورة جماعية على مسرح مزخرف بألوان النقوش الزاهية المعجبة ، وفى مصاحبة الموسيقى الهادئة الحالمة التى تسمو بالمشاعر وتناغى الوجدان . . كذلك كانت صلاة اليونان والرومان لأوثانهم وآلهتهم تؤدى على هذه الصورة أو نحو منها .

وأكثر من هذا فقد كان نبي الله داود عليه السلام يقف فى محراب الصلاة بلبلا صداحاً بأعذب الألحان وأشجاها بتلك « المزامير » التى تعد أصفى وأجمل ما عرف من أناشيد الحب والولاء ، وعلى هذا الإحساس سارت الديانة المسيحية فى صلاتها فجعلت من مزامير داود أناشيدها وتراتيلها فى مقام العبادة والزلفى إلى الله .

وأكاد أقول إن هذا الاتجاه الذى ذهبت إليه طوائف المتصوفة من المسلمين فى إقامة الأذكار والأناشيد فى مصاحبة المزمار والدف وغيرهما من أدوات الطرب ، واتخاذ هذا اللون ضربا من العبادة ، ووسيلة للتقرب من الله والاتصال به — أكاد أقول إن هذا الاتجاه من جانب المتصوفة ، إنما هو تحقيق لهذا المعنى الذى يجعل العبادة لوناً من ألوان الفنون التى تثير العواطف ، وتلهب الوجدان ، وتخلق فى الإنسان نوعاً من الذهول عن واقع الحياة المادية التى يعيش فيها .

وإذا كانت بعض فرق المتصوفة وطوائفها قد غلت فى هذا غلوًّا جعلها تتنكب الطريق السوى ، وترتكب كثيراً من الحماقات والضلالات التى لا تستقيم مع دين أو خلق ، فيتناول بعضهم المخدرات كالحشيشة وغيرها ، ويخلو بعضهم بالشبان المُرْد يُسَرِّحون أبصارهم فى وجوههم الحسان طلبا لإثارة الإعجاب فالدهش فالذهول — إذا كان بعض المتصوفة قد فعل مثل هذا الضلال فإن للفكرة فى ذاتها أصلا ثابتا فى أعماق النفس . إذ أنه حين ضاق بعض المسلمين بهذا الجفاف الذى أصاب العبادات فى ظل هذه الفلسفة التى خنقت روح الشريعة وعصرتها عصراً لم يجدوا وسيلة إلا إضافة هذه الأذكار إلى صلواتهم ليكملوا بها نقصا يجدونه فى أنفسهم ويحسون به بين جوانحهم .

والشريعة الإسلامية فى عباداتها ومعاملاتها غنية كل الغنى بالوجدانيات التى ترهف الشعور ، وتلهب العاطفة ، وتحرك أشواق النفس وحنينها إلى الملأ الأعلى . . القرآن الكريم كله موسيقى متساوية النغم ، وقد أُمر المسلمون بترتيله ترتيلا منغما . . والأذان الذى يسبق الصلاة هو قطعة رائعة من روائع النغم الموسيقى يستحضر مشاعر المسلم قبل أن يقف وقفته بين يدى الله للصلاة ، ومظاهر الجماعة فى الصلاة وفى الحج ، صور باهرة لإثارة الوجدان . .

فالشريعة الإسلامية غنية بالوجدانيات ولكن هذه الدراسات النظرية التى انطبع بها فقه الشريعة ، وصُبَّ فى قوالبها قد شغلت جمهور المسلمين بالتعرف إلى صورها وأشكالها دون نفوذ إلى أعماقها والوقوف على مواطن الروعة والجمال فيها ، فكان على المسلم أن يضبط قواعد الشريعة وأحكامها وأن يتعرف على أصولها وفروعها كما رسمها له أئمة الشريعة وعلماؤها ، وأن يحسن أداءها على تلك الصورة التى انتهى البحث إليها ، ثم لا عليه بعد ذلك إذا

فقد فى هذه الصورة دواعى الإلهام ، وبواعث الهدى ، ولا عليه إذا ذُهل عن الخالق ما دام قادراً على الإمساك بهذه الأطراف المتشابكة لكل عبادة من العبادات !

لم تكن هذه سبيل المسلمين الذين تلقوا عن الرسول دينهم ، وأخذوا عنه قولا وعملا كل صغيرة وكبيرة فيه .

كانت سبيلهم السماحة واليسر لأنها سبيل الإسلام ، وطريق صاحب الرسالة . . يقول الله سبحانه وتعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر[1] » ، ويقول الرسول الكريم : «الإسلام ذَلولٌ لا يركب إلا ذلولا[2] » « ويقول صلوات الله وسلامه عليه : (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغِّض إلى نفسك عبادة الله) .

هذه هى سبيل الإسلام فى دعوة الناس إلى عبادة الله وأخذهم باليسر والرفق ، وهذه سيرة الرسول الكريم فى حياته وفى صلته بالله . . فما خُيِّر عليه الصلاة والسلام بين أمرين إلا اختار أيسرهما .

ولهذا حُبِّبَ الدين إلى المسلمين الأولين ، وقامت الصلة بينهم وبين الله على الحب والإجلال فأثمر الدين فى قلوبهم ، وزكت تعاليمه فى نفوسهم ، وسرت فى كيانهم فأقامتهم على الحق ، وأمدتهم بأمداد الهدى ووصلتهم بالملأ الأعلى فكانوا أئمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسوسون الناس بالعدل والإحسان .

---

(١) البقرة : ١٨٥

(٢) المجازات النبوية للشريف الرضى صفحة ٢٧١ ، والمعنى أن الإسلام دين سمح سهل لا يجد له بيئة أصلح من النفوس السمحة الميسرة التى تتناوله من قريب .

وشىء آخر فى هذه الدراسات النظرية الجدلية لفقه الشريعة الإسلامية ، هو هذه الخلافات المذهبية التى وسعت شقة الخلاف بين المسلمين ، وأكثرت فيهم من الطوائف والشيع ، وأتاحت الفرصة لذوى المطامع والأغراض أن ينفذوا إلى أغراضهم عن طريق الدين ، وأن يدخل الدين فى معترك الحياة السياسية فيستند إليه أصحاب السلطان من الخلفاء ، والولاة ، كما يستند إليه الخارجون على هذا السلطان والطامعون فيه .

فباسم الدين وتحت سلطانه قامت الدولة العباسية . . وباسم الدين وتحت سلطانه وقع هذا الصراع العنيف بين خلفاء هذه الدولة بعزل من عزل وقتل من قتل . وكل خليفة يدعى لنفسه القيام على أمر هذا الدين والذود عنه وتجديد ماوهى من أحكامه ، ولهذا كانت ألقاب خلفاء هذه الدولة تحمل هذا المعنى وتشير إليه[1] .

وكما قامت الدولة العباسية باسم الدين واستظل خلفاؤها بظله ، كذلك سقطت هذه الدولة باسم الدين فتناثرت أطرافها ، وسقطت أمصارها فى يد أعدائها ، والمتألبين عليها من الشيعة وغير الشيعة ، وتحولت الخلافة الإسلامية إلى عدة خلافات ، ففى بغداد خلافة عباسية أو ديلمية ، وفى مصر خلافة فاطمية وفى الأندلس خلافة أموية وكلها قائمة باسم الدين . . وهكذا صار أمر المسلمين شيعاً ، لكل خلافة ولاتها وأنصارها ، ولكل خلافة رأيها فى الدين ومذهبها

---

(١) من خلفاء الدولة العباسية . المتوكل على الله (٢٣٢ و ٢٤٧) والمستنصر بالله (٢٤٧ — ٢٤٨) والمستعين بالله (٢٤٨ — ٢٥٢ والمعتز بالله (٢٥٢ ٢٥٥) والمهتدى بالله (٢٥٥ — ٢٥٦ والمعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩) ومن خلفاء الدولة الفاطمية . المعز لدين الله والعزيز بالله والحاكم بأمر الله .

فى الشريعة حتى تكون لها شخصية واضحة تمتاز بها فى عباداتها ومراسيم دينها ، كما كان لها شخصية واضحة تمتاز بها فى مضطرب حياتها وشئون دنياها .

وإذ كان الصراع بين الخلافتين العباسية والفاطمية متصلا عنيفاً فى مجال الغلب والسيادة الدنيوية ، فإن الخلاف الدينى بين هاتين الدولتين قد جاوز كل حد حتى لكأن كل دولة منهما على غير دين الأخرى ، وصار لكل دولة علماؤها الذين يرون رأيها ويروجون لطريقتها ، وكان من أثر هذا أن دخل على الدين كثير من الآراء الغريبة ، ودس عليه كثير من مقولات أصحاب البدع والأهواء ، وكثرت التأويلات فى آيات الكتاب الكريم والحديث النبوى ، فضلا عما انتُحِل من الأحاديث ، تنسب كذبا إلى رسول الله لتأييد مذهب أو تغليب رأى .

ففى مجال النظر فى كتاب الله كثرت التفاسير الغريبة الشاذة ، وظهرت فيها الجرأة على الحق ، وصار للقرآن ظاهر وباطن يأخذ به بعض ويدعه بعض .

ومن ثَمّ قد تواردت على الآية الواحدة من كتاب الله عشرات الآراء المختلفة التى لا يلتقى فيها رأى برأى من بعيد أو قريب ، وقلّ أن سلمت آية من كتاب الله من هذا الخلاف الشديد الذى باعد ما بين المسلمين ، وأجرى أمورهم على غير هدى .

فالشيعة يفسرون الكتاب الكريم حسب الذى يؤيد وجهة نظرهم فى تفضيل « علىّ » على غيره من صحابة رسول الله ، وأحقية أبنائه وذريتهم فى الخلافة ، والقيام على توجيه الأمة الإسلامية وإرشادها .

وأهل السنة يردون على الشيعة آراءهم ، ويرمونهم بالكذب والافتراء على الله والرسول .

والخوارج يأخذون من القرآن الجانب الذى يتسع لمذهبهم ، ويؤيد رأيهم فى الإسلام والمسلمين جميعا .

والمعتزلة لهم نظر فى القرآن لايلتقى مع غيرهم من هذه الطوائف من قريب أو بعيد .

وهكذا صار لكل طائفة قرآنها الذى تنظر فيه وتعمل به .

ويكفى أن نشير هنا إشارات سريعة إلى آراء فريق من الشيعة فى بعض آيات الكتاب الكريم لتكون مثلا واضحاً فى غلبة الهوى على أصحاب المذاهب والفرق .

ففى قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظُلَلٍ من الغمام[1] » يقول هذا الفريق من الشيعة إن المراد « بالله » فى هذه الآية هو « على » عليه السلام وأنه هو الذى يأتى فى ظلل من الغمام ، وأن الرعد صوته والبرق تبسمه[2] .

ويقولون فى الآية الكريمة : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طَعِمُوا إذا ما اتقَوْا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقَوْا وآمنوا ، ثم اتقَوْا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين[3] » . يقولون إن من وصل إلى الإمام وعرفه ارتفع عنه الحرج فى جميع ما يطعم ووصل إلى الكمال والبلاغ[4] » وهذا معناه أنه يحل له أن يفعل كل محرم ويرتكب كل منكر ولا حساب عليه ، لأنه فوق مستوى الحساب والعقاب .

---

(١) البقرة : ٢١٠ — (٢) الملل والنحل للشهرستانى (جزء ٢) صحيفة ٢٤٦

(٣) المائدة : ٩٣ — (٤) الملل والنحل للشهرستانى (جزء ١) صحيفة ٢٤٤

وفى قوله تعالى : « وقل اعملوا فسيَرى الله عملكم ورسولُه والمؤمنون وستُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة »[١] يقولون : إن عالم الغيب والشهادة هو الإمام المنتظر الذى يُرَدُّ إليه علم الساعة[٢]

وهكذا يفسرون الآيات الكريمة ويحمّلونها غير ما تحتمل من المعانى ليشبعوا هوى لا يغتذى إلا من هذا الإفك المبين .

ومثل هذا الذى وقع من بعض فرق الشيعة فى كتاب الله وسنة رسوله ، قد وقع مثله وأكثر منه من الخوارج والمعتزلة وغيرهم من الفرق التى انتسبت إلى الإسلام ، ولكل فريق من هؤلاء فرق مختلفة تضاربت أقوالها واختلفت مذاهبها ، كل فرقة تقول بقول وتذهب بمذهب[٣] .

لم يكن هذا الخلاف الدينى الذى وقع بين المسلمين وأصَارَهم طوائف وفرقا ، إلا نتيجة لازمة لهذا الأسلوب الجدلى من البحث فى أصول العقيدة وفى تعاليم الشريعة ولو وقف المسلمون بدينهم عند الحد الذى رسمه صاحب الدعوة وسار عليه صحابته ، واتبعه المسلمون فى صدر الإسلام — لو وقف المسلمون عند هذا الحد ، ولم يُفْتَنُوا بهذا الجدل السقيم لسلم لهم دينهم ، ولبقيت وحدة المسلمين قوية متماسكة تزيدها الأيام قوة وتماسكا .

ولكن هكذا قُدِّر للمجتمع الإسلامى أن يقع فى هذه المحنة ، وأن يُصايب بجميع أعراضها فتشيع فيه الفرقة ، وتتنازعه الخلافات المذهبية والطائفية ،

---

(١) التوبة : ١٠٥ (٢) الملل والنحل للشهرستانى (جزء ١) صحيفة ٢٤٨ .

(٣) عد صاحب الملل والنحل من فرق الشيعة ثلاثين فرقة منها : الكيسانية والمختارية والزيدية والإسماعيلية والاثنى عشرية ، وعد من فرق الخوارج ثمانية وعشرين فرقة منها : الأزارقة والنجدات والأباضية والصفرية ، ومن فرق المعتزلة عشرين فرقة منها الواصلية والنظامية .

ويمرق منه كثيرون إلى متاوِهِ الإلحاد والزندقة .. وصار من غير الميسور إصلاح الحال وإعادة المجتمع الإسلامى إلى السلامة التى كان عليها فى عهده الأول .

. . .

على أن هناك مجالا واسعاً للعمل على تدعيم الإسلام وتقويته فى محيط الجماعة التى تمثل الإسلام اليوم وتعد أقرب الجماعات إلى تعاليمه ، ونعنى بها جماعة « السنة » التى تتمذهب بالمذاهب الإسلامية الأربعة .. الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، والحنبلية ، فإنه إذا أمكن — وهو أمر ميسور — جمع هذه المذاهب على نهج واحد ، كان ذلك فاتحة طيبة فى سبيل الوحدة الكاملة للجماعة الإسلامية كلها من السنيين وغير السنيين .. فإن هذه الخلافات جميعها لم تبلغ ما بلغت من بعد واتساع إلا بدوافع الأهواء السياسية ، والغايات الشخصية ، وقلَّ ما كان منها عن رأى خالص لله وللدين !.

الخلاف بين أهل السنة

حين كثرت الخلافات المذهبية فى العصر العباسى ، وظهرت الفرق والطوائف ، فزع كثير من المسلمين الذين لم تجرفهم تيارات العصبية السياسية أو الدينية ، وعلت صيحاتهم مدوية بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله وإلى الأخذ بالمنهج الذى سار عليه السلف الأول ، وهؤلاء هم الذين عرفوا فيما بعد « بأهل السنة » الذين يأخذون بالمذاهب الأربعة المعروفة .

ولقد استقل أهل السنة بالشطر الأكبر من جمهور المسلمين الذين يقيمون دينهم على ظاهر كتاب الله وسنة رسوله ، ويأخذون بما أُثر من سيرة الرسول الكريم وصحابته . فتلك هى سبيل المسلمين التى رسمها صاحب الدعوة وأبان معالمها ، وأوضح مسالكها ، وجرى عليها الخلفاء الراشدون من بعده ، وتبعهم فى هذا كل من دخل الإسلام وآمن به . ولن يكون المسلم مسلماً حتى ينهج هذا المنهج ، ويسير عليه تحقيقا لقوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُولِّه ما تولى ونُصلِه جهنم وساءت مصيرا[1] » فمن استباح لنفسه الاتجاه فى غير هذه السبيل أو الانحراف عنها ، أو النقص فيها أو التزيد عليها ، فقد بعد عن الدين ، وخالف دستوره القائم على هذا المبدأ الواضح الذى حددته الآية الكريمة « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا[2] » .

---

(١) النساء : ١١٥ (٢) الحشر : ٧

وفى الحق أنه كان لابد من أن تظهر هذه الدعوة — دعوة الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله — فى المجتمع الإسلامى ، وأن ينحاز إليها جمهور المسلمين الذين لم يهضموا هذه النظرات الزائفة التى هجمت بها الفاسفة على أحكام الشريعة ، والتى أباحت لنفسها بناء هذه الأحكام على منطقها ، دون أن تتقيد بكتاب أو سنة ، ودون أن تقف عند الحدود التى رسمها وأخذ بها السلف الصالح .. وكان أن بعُدت الشقة بين هذه المذاهب الفلسفية و بين المسلمين الذين تلقوا دينهم عن مصادره الأولى ، ونهجوا نهج السابقين من الصحابة والتابعين .

وفى الحق أيضاً أن أهل السنة لم يكونوا بمعزل عن الحياة العقلية الفلسفية التى اصطبغ بها التفكير الإسلامى فى العصر العباسى ، فقد كان علماؤهم من أكثر العلماء إطلاعاً وأوسعهم معرفة ، فدخلوا فى هذه المعارك وشاركوا فى الخلافات المذهبية ، واستخدموا كل ما عرف من أسلحة فى هذا الميدان ، يجرّحون الآراء الخارجة عَلَى الدين ، ويكشفون زيفها ، وكان من أثر هذا أن ظهرت آثار التفكير الفلسفى فى آرائهم ومذاهبهم التى صوروا فيها تعاليم الشريعة الإسلامية .

ولقد حاولوا جاهدين أن يربطوا فقه الشريعة ربطاً وثيقاً بكتاب الله وسنة رسوله ، وسيرة الصحابة والتابعين .. ولكن سرعان ما اتجه بهم أسلوب البحث إلى إثارة كثير من المسائل النظرية والفرضية التى يولدها حب الاستطلاع والتقصى والتحليل طلبا لاستكمال الحدود المنطقية للبناء الفاسفى ، وإن كانت لا تدعو إليها حاجة ، ولا يتطلبها واقع الحال .

* * *

وأول ما يطالعنا فى مذهب أهل السنة هذا الانقسام الكبير الواضح بين علمائه الذين أصّلوا أصوله وأقاموا قواعده .. فهو أربعة مذاهب : الحنفية، والشافعية ، والمالكية ، والحنبلية . وذلك على ما انتهت إليه آراء الفقهاء الأربعة : أبى حنيفة ، والشافعى ، ومالك ، وأحمد بن حنبل .

على أن هؤلاء الفقهاء الأربعة لم يكونوا على طريقة واحدة فى البحث والنظر ، فهم فريقان : أصحاب الحديث وهم أهل الحجاز . وينحصر جهدهم فى تحصيل الأحاديث وتمحيصها وكشف الصحيح منها والدخيل ، وفى نقل الأخبار وبناء الأحكام المروية عن رسول الله وصحابته على هذه النقول ، لا يرجعون إلى القياس الجلىّ أو الخفىّ ماوجدوا خبراً أو أثراً ، وهؤلاء هم مالك ابن أنس ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وسفيان التورى ، وداود بن على الأصفهانى ، وأصحابهم .

والفريق الثانى : أصحاب الرأى وهم أهل العراق ، أبو حنيفة وأصحابه ، وهؤلاء لهم عناية خاصة بالقياس واستنباط الأحكام وبناء الحوادث عليها وربما قدموا القياس الجلى على اخبار الآحاد ، فهم فى هذا يقدمون الرأى على الخبر الضعيف ، وخبر الآحاد ، وأصحاب الحديث يقدمون الخبر الضعيف ، وخبر الآحاد على الرأى أيا كانت مسافة الخلف بينهما .

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « دخل عَلَىَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تَبْرَقُ أسارير وجهه : فقال : أى عائشة . . ألم ترى أن مُجَزِّزًا المدلِجى[1] دخل فرأى أسامة وزيداً[2] وعليهما قطيفة قد غطّيا رأسيهما

---

(١) مجزز المدلجى : قائف عرف بالحذق والفراسة والتعرف إلى نسب المرء من ملامحه .

(٢) أسامة : هو أسامة بن زيد ، وزيد هو زيد بن حارثة أبو أسامة أى الابن والأب ، ومقتضى قول مجزز أن الابن قد شابه أباه ، وذلك مما يؤكد نسبه إليه .

وبدت أقدامهما ، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض » .

وقد أخذ أصحاب الحديث بهذا الخبر فقالوا برأى القائل فى الاستدلال على النسب و إلحاق الأبناء بالآباء . ولم يأخذ بهذا الخبر أبو حنيفة وأصحابه ، ورجحوا الرأى عليه فقالوا : العمل بالقافة تعويل على مجرد الشبه ، وقد يقع الشبه بين الأجانب وينتفى بين الأقارب(١) .

فأهل السنة إذن لم يكونوا على حد سواء فى فهم أحكام الشريعة واستخلاصها من الكتاب والسنة ، بل كانت تختلف وجهات نظرهم حينا وتلتقى أحيانا ، ويتمسك بعضهم بظاهر النص من الكتاب والسنة ، بينما لا يقنع بعضهم إلا بالنظر الفاحص والبحث المُمعِن وراء ما يمكن أن يحتمله النص من شتى الاحتمالات ، فإن وسع النصُّ واقع الحياة أخذ به ، وإلا فالرأى هو المعول عليه ، ومن هنا كثرت وجوه الخلاف بينهم ، وعرف لكل فريق رأيه وطريقه ، فكانوا أربعة مذاهب يقوم على رأس كل مذهب إمام معروف له تلاميذه وأنصاره .

ولست أدرى لِمَ كانت المذاهب عند أهل السنة أربعة ولِمَ لَمْ تكن واحداً أو اثنين أو ثلاثة ولِمَ لم تتجاوز الأربعة إلى الخمسة أو الستة مثلا ؟

وأيًّا كان الأمر فإنه لابد من سبب خارجى وقع فى شعور المسلمين فوقف بهم عند هذا الحد من المذاهب ، وإلا فإنه قد كان بين مجتهدى فقهاء السنة من يعدل هؤلاء الفقهاء الأجلاء الأربعة علماً ورأياً . وكان لهم فى الشريعة آراء مستقلة تكاد تعدل أى مذهب من هذه المذاهب ، ومن هؤلاء

---

(١) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية ص ١٦ .

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصرى والليث بن سعد وأبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي ، وسفيان الثورى وغيرهم .

وعلى أى حال فإن أصحاب هذه المذاهب الأربعة قد صار إليهم قيادة المجتمع الإسلامى وتوجيهه . . ومن ثم صار لزاماً على كل مسلم أن يأخذ بمذهب من تلك المذاهب وأن يرجع إليه فى كل ما يتصل بأمور دينه فى العبادات والمعاملات ، فصار المسلمون بذلك أربع طوائف تأخذ كل طائفة بمذهب لا تتجاوزه إلى غيره ، إذ أن المقرر بين علماء الشريعة ألا يخلط المرء بين مذهب ومذهب ، فيأخذ عن هذا مرة ، وعن ذاك مرة ، أو يأخذ مسألة من هذا ومسألة من ذاك ، فهذا أمر نبّه عليه علماء الشريعة ولم يجيزوه . قال صاحب الملل والنحل : وأما العامى فيجب عليه تقليد المجتهد وإنما مذهبه فيما يسأله مذهب من يسأله عنه . . إلا أن علماء الفريقين من أصحاب الرأى وأصحاب الحديث لم يجوزوا أن يأخذ العامى الحنفى إلا بمذهب أبى حنيفة ، والعامى الشفعوى إلا بمذهب الشافعي[1] .

ووقوف الشريعة عند هذه الحدود التى حددتها المذاهب الأربعة ، وإلزام المسلمين أن يعيشوا فى هذه الحدود لا يبرحونها ، وأن يقيد المسلم بمذهب واحد لا يحيد عنه ، لا جدال فى أن هذا كان حجْراً على أولى الرأى والنظر من المسلمين فى العصور المتتابعة ، كما كان سبباً فى إبقاء الشريعة الإسلامية فى تلك القوالب التى صُبتْ فيها بيد أصحاب المذاهب الأربعة دون أن تتبدل أو تتطور مع تطور الزمان ومقتضيات الأحوال ، وذلك مما جعل كثيراً من

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى جزء ١ ص ٣٥٨

أعداء الإسلام يرمونه بالجمود وعدم التطور ومسايرة الزمن ، مع أن فقهاء الشريعة وعلماءها الذين أقاموا بناء هذه المذاهب كانوا أنفذ الناس بصراً ، وأهداهم بصيرة إلى فهم الشريعة الإسلامية و إدراك أسرارها ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان ، وأنهم لم يقولوا بهذا الإلزام ، ولم يحملوا الناس عليه . . ولكن الناس ظلموا أنفسهم ، ورَضُوا أن يحكموا عليها هذا الحكم القاسى ، بأن ألزموها حدوداً ضيقة تعيش فيها ، وكان لهم فى مجال النظر سعة ، لو نزَعت بهم هممهم إلى البحث والنظر .

يقول صاحب الملل والنحل : « نعلم قطعاً و يقيناً أن الحوادث والوقائع فى العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد ، ونعلم قطعاً أيضاً أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك أيضاً ، والنصوص إذا كانت متناهية ، والوقائع غير متناهية ، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى ، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد[1] » .

وهذا كلام صريح فى أن الحوادث والوقائع فى العبادات والتصرفات متجددة لا تقع تحت حصر ، وأنه يجب لكى تستقيم للناس أمور دينهم ودنياهم جميعاً أن يصحبهم دائماً نظر واجتهاد فى كل أمر يجدّ ويقع . وهذا معناه أن الوقوف عند المذاهب الأربعة إعنات و إرهاق للمسلمين ، وحكم على الشريعة بالقصور والعجز عن أن تسد حاجة الحياة ، وتكشف للناس معالم الطريق فى كل زمان ومكان ، وهذا معناه أيضاً اضطراب الأفكار و بلبلة الآراء حين تطلع على الناس حادثة جديدة ، وحين تأخذ حياتهم وضعاً خاصاً

(١) الملل والنحل للشهرستانى جزء ١ ص ٢٤٨ .

لم يكن من قبل، وما أكثر ما تتجدد الحوادث ، وما أكثر ما تتغير الأوضاع .

كان الخلفاء الراشدون وإخوانهم من صحابة رسول الله أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله وأكثرهم فهماً وذوقاً لروح الإسلام ومرامى الشريعة ، وكانت الحوادث تقع كل يوم ، وكل ساعة فتجد منهم الرأى النافذ والحكم السديد ، وكانت وجهات النظر تختلف ومناحى الرأى تتعدد ومع هذا لا يقع خلاف فى الحكم بل ينفذ الأمر على الوجه الذى يرونه أقرب إلى المصلحة وإلى طبيعة الملة السمحاء .

كانت تعرض المسألة من المسائل فيقول الصحابة فيها قولهم ، كلٌّ حسب ما يؤدى إليه فهمه واجتهاده ، دون أن ينكر أحد منهم رأى صاحبه ودون أن يستقل كل برأيه ويستبد به ويفارق أصحابه مفارقة الخصم ، ودون أن تغلبه طبيعة حب الغلب فيدعو إلى رأيه ، ويجمع العامة من حوله .

فهذا عمر ، وعلى ، وابن عباس ، وأبو موسى الأشعرى ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم من كبار الصحابة كانوا يختلفون فى الرأى ، ولكن لم يبلغ الخلاف بهم هذا الذى صار إليه الخلاف بين المذاهب الأربعة التى عليها المسلمون اليوم ، فإن أى مذهب فيها يضيق بالمذاهب الأخرى ، ويلزم الذى يأخذ به ألا يتجاوزه إلى غيره أو يخرج عليه ، ثم يلزم المسلمين جميعاً ألا يفكروا وألا يلقوا الحوادث بآرائهم ، بل عليهم أن ينظروا فيما قاله أصحاب هذه المذاهب ويأخذوا به .

غير أن الإنصاف يقتضينا أن نقرر هنا أمرين لا بد منهما حتى لا يظن ظانٌّ أن وراء هذا الكلام حملة يراد بها الثورة على المذاهب الأربعة والحط من قدرها .

فأولا : كان أئمة المذاهب الأربعة أكثر أهل زمانهم علماً وورعاً وإخلاصاً لخدمة الدين ، ورغبة فى نفع المسلمين به ، وتيسير سبيلهم إليه ، كما كانوا أنفذ علماء المسلمين بصيرة إلى هدْى الكتاب والسنة ، وكذلك كان الشأن فى تلاميذهم وحواريهم الذين عاصروهم وتلقوا عنهم ، فقد أرادوا بعملهم هذا أن يسدوا الثغرات ، ويقطعوا السبيل على المتطاولين على الدين ، وأن يضعوا للمسلمين دستوراً كاملا لشريعتهم ، ينفى عنها الدخيل ، ويحتفظ بالأصيل الحق من تعاليمها .

وثانياً : أن هؤلاء الأئمة والتلاميذ والحواريين — رضوان الله عليهم أجمعين — لم يفرضوا على المسلمين رأياً ، ولم يُلزموهم الأخذ بما رأوا ، ولم يقل أحد منهم أن هذا المذهب الذى ذهبت إليه هو الكلمة الأخيرة فى الطريق إلى الشرع الحنيف .

لم يقل أحد من هؤلاء العلماء الأجلاء شيئاً من هذا ، فهم مشكورون مقدورون لما بذلوا من جهود صادقة مضنية فى خدمة الشريعة ، وتعبيد سبلها ، وليس عليهم ما صار إليه أمر المسلمين فيهم ، من التعبد بآرائهم والافتتان بعلمهم وفقههم والوقوف بالشريعة عند خطواتها الأولى فى مواجهة الحياة . . فما كان هذا من عمل هؤلاء الأئمة الأجلاء ولكنه كان من صنع الأحداث التى مرت بالمسلمين ، ومن عمل الزمن الذى استدار للدولة الإسلامية ، وفرق شملها بعد الصدر الأول من العصر العباسى .

فلقد لعبت الأحوال السياسية والاجتماعية التى صحبت الدولة العباسية وتتابعت فى أعقابها — لعبت هذه الأحوال دوراً هاما فى تدوين علوم الشريعة ووقوفها عند الحد الذى انتهت إليه الجولة الأولى من مباحث علمائها .

ولا بد هنا من وقفة نلقى فيها نظرة عامة على حركة تدوين العلوم والفنون في هذا العصر ، ثم نظرة أخرى تمتد إلى الخطوات التى قطعتها تلك الحركة فى طريقها إلى الغاية من كل علم أو فَنّ ، فإن هذا البيان لا بد منه لـكى نعلم كيف تطورت حركة البحث الفقهى ، وكيف قدر لهذه الحركة الناشطة أن تقف ، وأن يقف معها النظر إلى ما وراءها ، ثم ينتهى الأمر بأن تصبح مباحث الأئمة الأربعة هى المراجع الأولى والأخيرة للمسلمين فى الأزمنة المتعاقبة إلى هذه الأيام .

كان العصر العباسى الأول عصر بناء الحياة العقلية للأمة الإسلامية فى شتى نواحي المعرفة من علوم وفنون ، وكان علماء هذا العصر على حظ كبير من الثقافة الرفيعة العالية ، كما كان على رأس كل علم أو فن أساتذة أعلام ، بلغ من نبوغهم أن كان العالم منهم يستقل وحده بتدوين العلم أو الفن ، فيولد على يديه سَوِىّ الخَلْق مكتمل البناء ، كما حدث هذا فى علم العروض الذى صوره الخليل ابن أحمد وأخرجه للناس على غير مثال ، فحصر بحور الشعر فى خمسة عشر بحرا هى كل ما عرف من بحور الشعر العربى وأوزانه إلى اليوم لم يُزَد عليها إلا بحر واحد مشتق من تلك البحور ! وهكذا كان الشأن فى النحو . . فقد ألف سيبويه كتابه المعروف باسم « الـكتاب » فى علم النحو فـكان هذا « الـكتاب » هو النحو كله إلى اليوم ! ومثله فعل عبد القاهر فى البلاغة بكتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » ، وكذلك كان الشأن فى علوم الدين ، فـكتاب « الموطأ » للإمام مالك هو عمدة المذهب المالـكى ، « وكتاب الأم » للإمام الشافعى هو أيضاً عمدة المذهب الشافعى . . لم يأت تلاميذ هذين الإمامين وأتباعهما بجديد يذكر فى أصول هذين المذهبين .

ولو جرت الأمور على طبيعتها لعدت العلوم التى ولدت فى العصر العباسى الأول بذوراً فى حقل المعرفة تنميها الأيام وتتعهدها الأجيال المقبلة بالزيادة والتمحيص فيعلو البناء ويقوى على مرّ الأيام .

ولكن الذى حدث كان على خلاف ما كان يُقدر ويُرجى . . فإن الأمة الإسلامية قد أصيبت بعد العصر العباسى الأول بفتن وأحداث فرقت شملها ، وأطفأت جذوة المعرفة التى كانت متقدة فى كل طرف من أطرافها ، فوقفت هذه الحركة التقدمية الناشطة وبدأ المتعلمون فى الأجيال المتلاحقة ينظرون إلى الوراء ويعيشون على ما ترك الآباء والأجداد كما يعيش الوارث الخامل فى ظل ما وَرِث ، فيأخذون من هذا الرصيد المذخور فى العلوم والفنون ، يقفون حياله وقفة القزَم أمام الفارع العملاق . . لم تنزع بهم همتهم إلى أن تكون لهم شخصية علمية مستقلة ، ولم تطوِّع لهم أنفسهم أن يُضيفوا إلى هذا الجديد جديداً ، وإنما كانت غاية جهدهم أن يحصلوا هذه العلوم وأن يبلغوا منها مبلغ العلم بها ، والمعرفة بحدودها .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فإن هذه النكسة التى أصابت العقلية الإسلامية ، وهذه الموجات المتلاحقة من الجهل الذى طمس على تلك العقلية ، قد جعل من هذه المبادئ فى العلوم والفنون طلاسم وألغازاً أمام هذه العقول الكليلة المريضة التى كان كل همها فهم هذه المدونات والوصول إليها بأية سبيل ، فظهر على رأس كل علم أو فن طوائف من الشراح الذين كانوا أقرب الناس إلى هذه العلوم وأقدرهم على فهمها ، فوضعوا لها الملخصات ، والمتون ، والشروح والحواشى والتقارير ، بل استعانوا فى هذا بالشعر ينظمون به القواعد

ويقيدونها به ، وذلك ليسهل على الدارسين فهمها وحفظ ما يمكن حفظه من قواعدها .

حدث هذا فى كل علم وفى كل فنّ : فى الفقه ، وفى اللغة ، وفى النحو ، وفى الفلك وفى الرياضة ، والجغرافيا وغيرها . وأصبح على طالب أى علم من هذه العلوم أن يقطع هذه المراحل جميعها فيبدأ بحفظ المتن — شعراً أو نثراً — ثم يخطو الخطوات التالية ، إلى الشرح ، فالحاشية ، فالتقرير ، وأن يقف طويلا عند كل خطوة لينظر فى الآراء المختلفة ويوازن بين الراجح والمرجوح منها ، فإذا ما انتهى إلى هذه الغاية كان ذلك حسبه من العلم والمعرفة ، وكان من حقه أن يعد عالما يدخل فى زمرة العلماء .

ولعل أوضح شاهد على عقم هذه الدراسات وتفاهتها ما وقع فى مجال اللغة العربية وآدابها . ذلك أن اللغة فى واقع الحياة ضرورة من ضروريات المجتمع لا يمكن أن يستغنى عنها ، أو تنتظم حياته بدونها ، وهى لهذا فى معرض التعامل الدائم بين الناس ، وهذا من شأنه أن يكشف عن مواطن الضعف والقوة منها .

أنظر إلى أساليب تلك الدراسة وكيف فعلت فِعلَها فى اللغة العربية وآدابها ، وكيف باعدت بين الدارسين وبين الحياة ، وكان من شأنها — لو جرت على الطريق القويم — أن تجعل من المتصلين بتلك الدراسات أقدر الناس على تصوير مادّيات الحياة ومعنوياتها بأبلغ أسلوب وأوضح بيان .

إننا حين ننظر فى أساليب دراسة اللغة والأدب مثلا ، وفى مادة تلك الدراسة التى تقدم للطلاب نجد عناء مُعنى وكرباً كارباً يأخذ الطالب من كل ناحية ، هذا إلى زمن متطاول يكاد يذهب بالعمر يقطعه الطالب فى تلك

الدراسة المضنية . ثم لا نجد مع هـذا فى محصول الطالب شيئا ينفع فى مجال الإفصاح والإبانة إذا جد الجد وحزب الأمر .

فلقد تنوعت الدراسات اللغوية ، من نحو وصرف و بلاغة وأدب ، ولغة وتعددت فى كل واحدة من هذه الدراسات المذاهب والآراء . . فأصبح على من يريد دراسة اللغة العربية وآدابها أن يُعِد نفسه لرحلة طويلة شاقة ، وأن يشهد مواقف الجدل والمصاولة فى كل مسألة تعرض له . . ثم لا ينتظر بعد هذا شيئاً يغنى فى فهم اللغة وتذوق مواطن الجمال فيها ، فما كان من شأن هذه الدراسات أن تبحث عن أساليب التعبير ، ولا عن مواطن الجمال ، و إنما غايتها البحث وراء الأساليب المُلْتَوِية والعبارات الغريبة الشاذة التى تصلح مادة للجدل ، وميدانا للمصاولة والصراع .

فلقد قطع النحويون واللغويون زمنا طويلا من تاريخ اللغة العربية فى هذا الجدل العنيف العقيم ، الذى كانت تعقد له مجالس المناظرة على ملأ من الناس يشهدون صراعا مرهقاً عنيفاً بين طرفى الخصومة فى رفع كلمة أو جَرِّها ، وفى هذا المجال يشتد الجدل ، و يعنف الخصام ، وتلتمس وسائل الغلب بكل سبيل ، بالحق حينا و بالباطل أحياناً ، فإن المسألة كانت تنتقل من باب النظر والرأى إلى مجال العصبية والدفاع عن الكرامة وعن النفس أيضا إذ كان المغلوب عرضة للقتل من يد أنصاره قبل خصومه !

فتتحول المسألة بهذا إلى هدف واحد هو كسب المعركة بأى ثمن ، وكان طبيعياً أن يؤدى ذلك إلى الكذب والادعاء ، و إلى اصطناع أساليب جديدة ، وخلق شواهد غريبة تفحم الخصم ، وتقطع عليه كل حجة . . وكان من أثر هذا أن أصبحت الأساليب المعوجة ، والعبارات الملتوية ، والشواهد الغريبة

هى مطلب العلماء ومقصد الباحثين ، إذ كانت أصلح شيء لتأليف الألغاز وتركيب الطلاسم التى يضل الخصم فى مسالكها و يعجز عن الوصول إلى مفتاح السر منها . ففسدت بذلك اللغة وانحلت الضوابط . . حتى أنه لم تسلم مسألة واحدة من خلاف . . يقول هذا برأى ، فيرى الآخر من الحتم اللازم عليه أن يَنقض عليه رأيه ، وأن يبحث عن مثل شاذّ يؤيد به رأيه ذاك ، فإن لم يجد اصطنع ذلك وادعاه . و إلا حكم عليه بالغلب ووقع فى كرب و بلاء . فلا بد لكى ينجو من أن يحتال ما وسعته الحيلة ، وأن يطلب النجاة وأن يركب لها الحق والباطل ، و بهذا أصبح لكل مسألة فى اللغة وجهان أو أكثر فليس فى اللغة على هذا خطأ أو صواب ..

وكل ما تقوله تجد للعلماء فيه رأياً يؤيد الخطأ أو ينقض الصواب . فلك أن تنصب الفاعل وترفع المفعول ولا عليك فى هذا من بأس ... فإن حاجّك أحد أو جادلك فارجع إلى باب الفاعل فى كتب النحو والتمس حجتك هناك فإنك واجد فى القول سعة ، فقد أجاز العلماء أن يقال : « خرق الثوبُ المسمارَ » (بفتح الراء) ولك أن تقول : « أكل محمدٌ الأسدَ » (بفتح الدال) !

ومثل هذا جرى فى كل مسألة من مسائل اللغة والنحو ... فما كان للقوم من همّ إلا أن يأتوا بما يحير العقول ، و يعجز الأفهام .

انظر . أخذ عالمان من علماء اللغة فى تقطيع هذا البيت :

أبا منـذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانَيْكَ بعض الشر أهون من بعض

وفى العروض تتقطع أجزاء هذا البيت إلى تفعيلات فيجيء الشطر الأول على هذا الوضع :

أبا مُنْ ذرٍ أفني تفاستَبْ قِبَعْضَنَا

وترددت كلمة « قِبَعْضَ » فوُجدت غريبةً على هذين العالمين فقالا إنها فرصة لنسأل « المُبَرِّدْ » عن معنى هذه الكلمة الغريبة وكان « المبرد » لكثرة حفظه يُتَّهم بوضع الكلمات الغريبة الملفقة ، فجاءا إليه ، وقد اصطنعا الجد والوقار يسألانه : ما القِبَعض ؟ وهما يريدان بهذا أن يوقعاه ، ويأتياه بالدليل الواضح على كذبه وادعائه وكيف يجد لهذه الكلمة معنى وهى كلمة لا وجود لها فى لغة العرب ؟ ولكنه لم يعجز ففزع إلى طبيعته .. واستمد علمه ومقدرته . فاصطاد شاهداً جاء به كذباً وبهتاناً ، وهنا ظهرت عليه أمارات الزهو فقال : القِبَعض : القطن المندوف ! ! فقالا له : وما شاهدك على هذا ؟ قال : قول الشاعر : ورمى بالشاهد الذى اخترعه :

« كأن سَنَامها حُشِي القِبَعْضا »

بهذه الشواهد الدخيلة المكذوبة الفاسدة فتن النحاة واللغويون ، ولهذا عَدَلُوا عن الاستشهاد بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف وهما المثل الأعلى لبلاغة اللغة العربية وآدابها ، وآثروا الاستشهاد بالغريب الشاذ من أشعار البدو وصعاليك العرب . وهكذا كانت تؤصل أصول اللغة وترسم قواعدها . فلا عجب أن تضل بالدارسين السبل وتنقطع بهم الأسباب وأن يخرجوا من هذه الدراسات على حال من البلبلة والاضطراب لا تقيم لساناً ولا تُسعف متحدثاً .

ولو وقف الخلاف عند رجال النحو واللغة لهان الخطب . ولقلنا إنها رياضة ذهنية لشحذ الملكات ، وتوسيع المدارك . ولكن المؤسف حقاً أن يدخل هذا الأسلوب نفسه فى مباحث البلاغة فيفسدها ، ويذهب بكل خير يرجى منها ، فإن المفروض فى مباحث البلاغة أن تكون معرضاً للأساليب

البليغة والعبارات الرائعة ، والتعبيرات المتخيرة من آداب هذه اللغة الغنية بفرائد فنها وذخائره .

ولكن علماء هذا الفن قد أخذوا بمذهب العصر فانصرفوا عن هذا كله إلي الأساليب الملتوية والعبارات الشاذة واهتموا بالبحث عن الضوابط والنظر فى التقاسيم إرضاء لشهوة المنطق التى فرضت عليهم أن يلتزموا هذه الهندسة العددية فى بناء البحث و إقامة الأصول والفروع على أركان إن لم يستدعها البحث وتطلبها الحقيقة ، استدعاها المنطق وفرضها فرضاً .

على هذا الأسلوب من البحث الذى سارت فيه علوم اللغة والأدب سارت علوم الشريعة وفقهها . فعدت المباحث الأولى التى انتهى إليها الأئمة الأربعة هى كل الشريعة الإسلامية لا ينبغى أن يتطاول متطاول فيقول فيها بقول جديد . وصار همُّ علماء الدين عصراً بعد عصر هو النظر فى هذه المباحث نظرَ التلميذِ الصغير إلى أستاذه يردد ما يقوله ، ويجهد نفسه على أن يحفظ ما يلقى إليه . فاصطنعت لهذا كل الوسائل التى صنعت لدارسى اللغة والأدب . « متون » بالنثر والنظم ، وشروح ، وحواش ، وتقارير . وكلها تدور حول الأصول الأولى لا تتعداها ولا تخرج عنها .

وطبيعى ألا تثمر هذه الدراسة فى نفوس الدارسين ثمراً نافعاً ، ولا تمكن لصاحبها من التعرف إلى الدين الصحيح والوقوف على أسرار الشريعة . . لأن المسائل الخلافية هى كل هم الدارس ، ولأن هذه المسائل أكثرها فرضى لا يقع فى الحياة . ولا يقع موقعاً إيجابياً فى العبادات والمعاملات ، ولأن الكثير من هذه المسائل بَدَهِيٌّ لا يحتاج إلى نظر ولكنه مع هذا محكوم على الدارس أن يَعِيَهُ وأن يحشو عقله بتراكيبه ومفرداته ، وأن يحفظ كثيراً من الطلاسم والألغاز

لإفحام الخصوم و إعجاز المخالفين ، وأن يكون دائما يقظاً مستعدًّا للجواب المسكت والرأى المفحم و إلا فليس له فى باب العلماء مدخل .

روى عن بشر المريسى أنه قال للفراء يا أبا زكريا أريدأن أسألك مسألة فى الفقه فقال:سل ، قال ما تقول فى رجل سها فى سجدتى السهو ؟ قال لاشىء عليه . . قال من أين لك هذا ؟ قال : قسته على مذهبنا فى العربية وذلك أن المصغر لا يصغر ! وكذلك لا يلتفت فى السهو إلى السهو فسكت الرجل[1] .

وهكذا سارت علوم الشريعة فى هذه المسالك الضيقة المظلمة ، لا يكاد المرء يرى فى خلالها بصيصاً من نور هذه الشريعة السمحاء .

---

(١) طبقات النحاة ص ٤٧

التعصب المذهبي

ربما فزع كثير من الناس حين يبدو لهم من خلال هذا البحث أن كتب الفقه والأصول وما اشتملت عليه من دراسات وبحوث واسعة مستفيضة وما دار حولها من شروح وحواش وتقارير ليست على شيء ذى خطر فى التعرف إلى الله، وإلى أحكام الشريعة وأن الطريق إلى الله قريب من قريب لايحتاج إلى هذه الكتب ولا إلى ما اشتملت عليه من عويص المسائل وغريب الأفكار، وأن المتجه إلى الله لا يحتاج إلى هذا العناء الطويل.. وأن الوقوف على أوامر الله ونواهيه كذلك شيء يكاد يكون بديهيًّا لا يتطلب إلا إشارات خاطفة إلى مراسيمه وحدوده.. ليجرى الناس عليها وينهجوا سبيلها.

نعم، ربما فزع كثير من الناس لهذه الخواطر، وشق على أنفسهم أن تضيع هذه الثروة العظيمة من تراث الآباء والأجداد.. وأن تذهب يد الضياع والإهمال بهذه الألوف المؤلفة من المجلدات.. وأن تهدر هذه العصارات العقلية الجبارة التى بذلها أسلافنا فى سخاء، وضحوا فى سبيلها بكل ما يضحى به من جهد ومال، ووصلوا إليها بالسهر الطويل، والدرس المتصل ابتغاء رضوان الله، وخدمة الدين ونفع المسلمين.

ولا جدال فى أن الأمر على هذه الصورة جدير أن يفزع منه، وأن يلقاه المسلم فى ثورة ثائرة.. فإن هذا التراث العقلى مما يجب أن يُضن به أشد الضن، ويحرص عليه غاية الحرص. إذ كان ممثلا للحياة العقلية الإسلامية

وشاهداً من شواهد وجودها على الزمن . . فضلا عما يحمل فى طياته من أنوار هادية ، وثمرات طيبة يهتدى بهديها المسلمون ، و يغتذون من ثمرها . . و إنه لمن السّفه والحمق أن يُهمل مثل هذا التراث أو يزدرى . . فما عاشت أمة فرطت فى تراثها و إن قلّ غَناؤه ، وضعف محصوله . . فكيف وتراثنا هـذا نتاج عبقريات خالدة ، ووليد عقول جبارة هيهات أن يجىء الزمان لها بنظير .

فما الرأى إذن فى هـذا البحث الذى عرضت فيه لهذه المؤلفات فى علوم الشريعة ؟ وما مصرف القول فيما قلت من أنها لاتصل بدارسها إلى الغاية المنشودة من الدين ، وأنها عبء ثقيل يجب التخفف منه ؟ ؟ .

لعل الذين تابعوا هذا البحث ، وعُنوا به يذكرون أنى أشرت فى وضوح إلى أن الفطرة التى هى قوام هذا الدين يجب أن تظل دائماً هى الروح المهيمن على أحكام الشريعة وتعاليمها ، وأن كل عوج أو تعقيد أو إعنات يظهر فى محيطها إنما هو مدخول على هذا الدين بعيد عنه ، ومعنى هذا أنه يجب أن تكون مصادر ديننا سهلة المورد قريبة المَنال ، لا تجهد طالباً ، ولا تعنت قاصداً ، ينالها كل من أراد . لأن هذا الدين دين الإنسانية كلها ، فيجب أن يجرى مع طبيعة الناس سهلا ميسراً ، و إلا كان التكليف به تعجيزاً للناس ، وحملا على ما لا يطاق . . وتعالت حكمة الله ورحمته عن ذلك علوًّا كبيراً .

ومعنى هذا أيضاً أنى لا أعرض لهذه المؤلفات من كتب التوحيد والفقه والأصول إلا من حيث أنه منظور إليها على أنها المصادر الأصلية لأحكام هذا الدين وتعاليمه ، وأنه مطلوب من المسلم الحريص على دينه أن ينهج منهجها و يسلك سبيلها ، وهى من هذه الناحية لا تصلح — فى رأيى على الأقل — .

للتعبير عن سماحة الشريعة الإسلامية ، ولا للترجمة عن بساطتها ويسرها ، لما اشتملت عليه من نظريات فلسفية عميقة ، ولما وسعته من مماحكات ، ومجادلات ، واختلافات ، من الخير للمسلم أن ينأى بدينه عنها ، ويطلب لنفسه السلامة منها .

هذا هو رأيي في هذه المؤلفات في علوم الشريعة ، وفي قيمتها ، من الناحية الدينية . أما مكانها في العلم ، والفلسفة ، وأما قيمتها في موازين التفكير الإنساني فهي شيء عظيم رائع جدير بأن يحرص عليه ، ويضن به . وأن يكون مدرسة الدارسين من أصحاب الذكاء والفهم كما يدرس الطب والهندسة وغيرها من العلوم والفنون .

هذا توضيح لا بد منه . وجواب على كثير من الأسئلة التي ربما تدور في كثير من الرءوس في شأن هذه المكتبة الإسلامية العظيمة التي خلفها أسلافنا في علوم التوحيد والشريعة والأصول ، وإلى أين يُذهب بها إذا لم تكن في معرض الدين ، وملتقى نظر المسلمين .

فليطمئن إذن هؤلاء الذين أشفقوا على الدين من أن تخف موازينه ، وتنضب موارده إذا لم يتلقه المسلمون من هذه المؤلفات ، ولم يبذلوا في سبيله جهوداً مضنية لقاء ما في هذه المؤلفات من دراسات واسعة مستفيضة في كل شأن من شئون الدين .

فإن هذا الدين — في يسره وسماحته — لا يحتاج إلا إلى قلب مقبل إلى الله متفتح لدينه فإنه إذ ذاك سيمتلئ إيماناً خالصا ، ومعرفة مشرقة ، كما تمتلئ الرئتان بطيب الهواء ، ورقيق النسيم .

ثم ليطمئن هؤلاء المشفقون أيضاً على هذا التراث الضخم من المؤلفات

فإنها باقية خالدة ، لا تزال أبداً نابضة بالحياة ، آخذة مكانها المرموق بين العلوم والفنون ثم هى بعد ذلك مرجع عتيد من مراجع الدين الإسلامى الحنيف . لا يمكن إغفاله بحال من الأحوال !

وأعود الآن إلى موضوعنا فى هذا الخلاف بين أصحاب المذاهب الأربعة وما لهذا الخلاف من آثار فى المجتمع الإسلامى .

فهذا الخلاف قد جعل المسلمين أربع طوائف ... لكل طائفة علماؤها ، وسِمَتُها الواضح فى العبادات والمعاملات ... وإذا كانت هذه السمات قد خفت حدتها شيئاً ما فى هذه الأيام فإنها كانت إلى عهد قريب واضحة أشد الوضوح تكاد تجعل من كل طائفة من طوائف المسلمين أمة مستقلة لا تلتقى بالطوائف الأخرى بأى وجه من الوجوه ... وكان من المتعارف بين المسلمين إذ ذاك أن يذكر المرء مذهبه مضافاً إلى نسبه فيقول أو يقال عنه إنه فلان بن فلان المالكى أو الشافعى مثلا ، وكأنما هذه النسبة إلى المذهب الذى ينتمى إليه أمر لا بد منه كى يُعرف ويشهر ... وقد اتخذ هذا اللون من الاعتزاز المذهبى طريقه المرسوم له من إقامة الحواجز بين جماعات المسلمين فامتد إلى المساجد وجعل منها صوراً مقابلة لهذه الفُرقة بين المسلمين ... فكان بعض المساجد ولا يزال مقصوراً على جماعة مذهب معينة .. يدرس فيه فقه هذا المذهب ، ويقصده المنتمون إليه ، كما كان بعضها الآخر مقسما إلى أقسام أربعة تسع المذاهب جميعها ، فهذا ركن الشافعية ، وذاك ركن الحنفية . . وهكذا . . وفى كل ركن فقهاء المذهب ، وأتباعه يتدارسون ويؤدون الصلاة على الوجه الذى قرره مذهبهم دون أن تعطفهم عاطفة الإسلام على الانضواء إلى الجماعات الأخرى فى أوقات الصلاة .

هذه صورة لا نشهدها اليوم كثيراً فى مساجدنا ، وإن كانت لا تزال قائمة فى كثير من الأقطار الإسلامية الأخرى ، وإن كان لا يزال فى مصر مساجد وزوايا مقصورة على بعض أصحاب المذاهب والطرق .

وأظن أن هذا شىء بعيد غاية البعد عن الإسلام وروح الإسلام . . فإن الصميم من رسالة هذا الدين إنما هو التجميع والتأليف . . وربط الناس برباط واحد وإقامتهم على طريق مستقيم .

وأكثر من هذا . . فقد مضى التعصب للمذهب إلى أن كان الحاكم يشتد على غير التابعين له فى مذهبه ، وأن يأخذهم بالبأساء والضراء ، وأن يَحرم الأكفاء منهم من مكانهم الجديرين به فى الحياة العامة للدولة . . كما قضى هذا التعصب المذهبي بأن يقصر أصحاب الخير خيرهم علي أهل مذهبهم دون غيرهم من المسلمين . . فيقف بعض الناس أوقافا خيرية على علماء مذهب بعينه وعلى طلاب مذهب بعينه لا يشركهم فيه غيرهم من أهل المذاهب الأخرى ولو كانوا ذوى معسرة (١)

والإسلام — كما نعلم — لا يقصر الخير على جماعة خاصة من المسلمين . . وإنما جعل البر مشاعا بينهم . . وجعل مصارف الزكاة مطلقة « للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل » . . فكل مسلم على صفة أو أكثر من هذه الصفات له حقه فى الزكاة والصدقة . . أما أن يذهب بها الناس هذا المذهب الذى رأينا صوره فيما أحدثه الخلاف المذهبي ، فذلك على غير ماأمر به الله ، وجاء به الدين .

---

(١) نشهد هذا واضحا فى مصر حيث كان المذهب الحنفى هو الغالب فى الدولة يوم كانت مصر تابعة للحكم التركى ، وقد أوقف الحكام وأصحاب الثراء الكثير من الأوقاف على علماء المذهب الحنفى وطلبة العلم على هذا المذهب .

وإذا كانت حدّة هذا الخلاف قد فترت فى هذه الناحية أو تلك . . فإن هناك صوراً واضحة لا تزال تشير فى قوة إلى أن الخلاف واقع بين المسلمين ، وأنهم ليسوا على طريق سواء . . صور مادية يراها رأىَ العين المسلمُ وغير المسلم ، فيدرك لأول نظرة أن المسلمين شيع وطوائف ، وأنهم على حالهم تلك لا يمكن أن يجمعهم دين واحد ، فإن من شأن الدين أن يخلق بين أتباعه جوّا خالصا من الوفاق والوحدة فى الظاهر والباطن جميعا .

انظر إلى المسلمين وهم يقفون بين يدى الله فى الصلاة . . فماذا ترى ؟ لا يحتاج الأمر إلى معاودة النظر أو إعمال الفكر لتقع على الخلل والاضطراب فى هذه الجماعة القائمة بين يدى الله . . فهذا يقف فى الجماعة مرسلا يديه إلى جانبيه إرسالا .. لأنه مالكى ولأن مذهب مالك يقول بهذا الوضع فى الصلاة ، وثان يضع يديه ممسكا بهما تحت سرته . . لأنه حنفى ولأن مذهب أبى حنيفة يأخذ بهذه الصورة ، وثالث يضع يديه ممسكا بهما إلى صدره لأنه شافعى . . وهكذا ... صورة غريبة أقل ما يقال انها « مهزوزة » قد أخطأها الفن وفاتها نصيبها من التوفيق .. والإسلام خلاق للفنون ، يعرض روائعها فى كل خط يخطه فى صحفه الوضيئة المشرقة . .

ففى الصلاة يحرص الرسول الكريم — صلوات الله وسلامه عليه — أشد الحرص على تسوية الصفوف، ولا تفوته لفتة يرى فيها اضطرابا فى الصف ، أو فرجة بين المصلين إلا بادر إلى الأمر بتقويم العوج وسد الثغرات ، بالعمل حينا ، وبالقول أحيانا ، فيقول صلى الله عليه وسلم فى مقام التعليم « رُصوا صفوفكم ، وقاربوا بينها ، وحاذُوا بالأعناق » وامتثال هذا الأمر جدير بأن يجعل من الصف فى موقف الصلاة صورة رائعة يمسك النظام والانسجام بأن

أطرافها كما يمسك السلك حبَّ العقد النظيم .. وفى إحدى المرات يجىء أبو بكر — رضى الله عنه — إلى الصلاة وقد ركع النبى وركع بركوعه المسلمون فيركع أبو بكر قبل أن ينتهى إلى الصف حرصاً على اللحاق بالرسول فيقول له النبى صلى الله عليه وسلم « زادك الله حرصاً ولا تَعُد » . . فهو ينهى أبا بكر عن أن يأخذ وضعاً فى الصلاة بعيداً عن النظام العام الذى يجب أن ينتظم فيه جماعة المسلمين ولو كان ذلك طلبا لإدراك جزء من أجزائها فى الجماعة .. فإنه لا يضحى بهذه الوحدة المنتظمة ، ويخرج على نظامها لأى سبب من الأسباب .

وعن وابصة بن معبد الجهنى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يصلى خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة . وفى رواية أنه قال له « ألاَ دخلتَ معهم أو اجْتَرَرْتَ رجلا ؟ » .

تلك هى تعاليم الرسول فى تسوية الصفوف ، وتلك هى روح الإسلام فى الاحتفاء بالمظاهر التى توحى بالوحدة والائتلاف ، وتوافق المشارب والأهواء ، فإن لهذه المظاهر آثارها فى شعور الإنسان وتفكيره ، إذ سرعان ما تتسرب إلى خاطره ، وتنفلت إلى نفسه فتعمل عملها فى وجدانه وفى سلوكه .

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يمشى بين صفوف المصلين ومقبض سيفه فى يده يسوى هذه الصفوف ، وينهر من يأخذ فيها وضعا يشوّه من روعتها وجمالها . .

تصور هذا المنظر الذى حدثتك عنه ، والذى تراه فى كل جماعة قائمة للصلاة فى أيامنا تلك . من هذا الاضطراب فى نظام الوقوف ، وأوضاع الأيدى على هذه الصور المختلفة .. وتصور عمر بن الخطاب يشهد هذا المنظر ويقوم فيه

فماذا تقدر ؟ وما تظن بما كان يفعل أمير المؤمنين ؟ أكاد أجزم بأن خليفة رسول الله لو شهد مثل هذا المنظر فى عهده لما وقف عند حد النهر والزجر بل لأعمل سيفه فى هذه الأيدى ، ولأقامها على نهج واحد .

وقد يقول قائل : وما المنكر من أمر هذه الأوضاع التى يتخذها المصلون من إرسال الأيدى أو إمساكها ، وقد ثبت أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان يرسل يديه فى الصلاة ، كما كان يمسكها فوق الصدر أو تحت السرة أو على الجانب الأيسر من الصدر مما يلى القلب ؟ .. فهذه كلها صور نقلت بالإسناد الصحيح عن رسول الله ، وأن أئمة المذاهب قد أخذوا بما ثبت من صحيح السنة فما المنكر أن يأخذ بها المسلمون ، كل حسب الوضع الذى أخذ به إمامه وارتضاه ؟ ومعاذ الله أن أقول إن هذه الصور قد ابتدعها هؤلاء الأئمة الأجلاء ، وإنهم قد اتبعوا فيها هوى مذهبياً .. وإنما أقرر فى يقين أن هذه الأوضاع جميعها قد كانت من فعل الرسول عليه الصلاة والسلام .. وأن كل إمام قد ارتضى الوضع الذى ارتاح له واطمأن إليه .

ولكن مع هذا لا بد من وقفة نقفها هنا على هذه الحقيقة لنقرر :

أولا : أن ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام من اختلاف وضع يديه الكريمتين فى الصلاة إنما هو مما يساير الفطرة ويجرى مع سماحة هذا الدين ويسره فى أن يأخذ المصلى الوضع الذى يستريح إليه من إرسال يديه أو إمساكهما على حسب الظروف والأحوال .. وأنه لا حرج على المسلم أن يأخذ بأى وضع شاء ..

وثانياً : أن المسلمين الذين كانوا يصلون خلف الرسول الكريم ، كانوا يأخذون الوضع الذى يكون عليه نبيهم وإمامهم ، دون أن يخرج عليه

خارج ولو بوضع كان الرسول قد فعله من قبل ، وأن هذه كانت سبيل المسلمين في جميع الأمصار إلى أن ظهرت المذاهب وتمايزت بأنصارها وأتباعها . . فما كان لمسلم أن يضع يده على وضع لا يكون عليه إمامه . نعم . . لم يرد وصف صريح لهذا الوضع الذى أشرنا إليه ، ولم يذكر أصحاب الحديث ما يشير إلى هذا ، ولكن نستطيع أن نجزم بأن جميع المصلين خلف الرسول الكريم أو خلف صحابته رضوان الله عليهم — كانوا يضعون أيديهم على الصورة التى يكون عليها وضع يدى الرسول أو الإمام من أصحابه ، نقول هذا على وجه التأكيد والجزم استناداً إلى روح الإسلام ، و إلى حرص شريعته على التأليف بين الناس وجمعهم على صورة واحدة ، وأن يسوى بينهم تسوية مطلقة فى هذا المقام الكريم ، ولهذا جاءت الأحاديث الكثيرة فى وجوب متابعة الإمام فى حركاته وسكناته . يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إنما جُعل الإمام ليُؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، و إذا سجد فاسجدوا ، و إذا رفع فارفعوا ، و إذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد ، و إذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً أجمعين[1] » وروى مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار[2] ؟ » وهذا التهديد من الرسول الكريم لمن يسبق الإمام برفع رأسه لم يكن إلا لأن هذا الذى رفع رأسه قد خرج على النظام العام الذى عليه الجماعة ، ومن ثم وجب أن يخرج عن الجماعة الإنسانية كلها ، و يسلك فى جماعة الحيوان . . مع أكثرها بلادة وهو صنف الحمير ! .

---

(١) صحيح مسلم جزء ٢ صفحة ١٨ .

(٢) صحيح مسلم جزء ٢ صفحة ٢٨

وثالثاً : أن أصحاب المذاهب قد استبد بهم الخلاف فأغراهم بالمخالفة التى لا تجرُّ نفعاً ، ولا تثمر إلا فرقة وانقساماً . وإن كان لهذا الخلاف مستند من الحق ، ودليل من الواقع .. وماذا لو قال صاحب كل مذهب بهذه الصور جميعها وكلها حق بل وماذا لو أجمع أصحاب المذاهب على صورة واحدة وهى الحق لا شك فيه إذن لاستقام المسلمون على صورة واحدة فى الصلاة ، وخلت صفوفهم من هذا الاضطراب ، ولأخذتهم العين مأخذ الجلال والروعة فى هذا المقام الرائع المشهود ، ولكنه التعصب للمذهب الذى يبدأ أول أمره اجتهاداً فى تحرى الحق ، وكشف معالم الطريق ، ثم لا يلبث بفعل المنافسة وحب الغلب ، أن ينقلب إلى عداوة تملأ العين كراهية وازدراء لكل عمل أو رأى يجىء من تلقاء الخصم المنافس .

هذه صورة من صور الخلاف المذهبى الذى لا غاية له إلا الخلاف والخلاف وحده ، ولا ثمرة منه إلا هذه الفرقة بين جماعة المسلمين فى أكرم موقف بين يدى الله .

لقد كانت طريقنا إلى ديننا سهلة قريبة ، فجرَّنا الخلاف المذهبى والتعصب الطائفى إلى هذه المزالق التى لا يؤمن فيها العثار ، ولا ترجى معها السلامة ... وصرنا إلى هذه الفرقة المشتتة التى تمشت فى حياتنا المادية والمعنوية حتى يكاد المسلم ينكر أخاه أو يتنكر له ... وتلك حال جديرة بالرثاء أو البكاء :

كنا أناسا على دين ، فغيَّرنا طولُ الجدال ، وخلط الجد باللعب

فلطفك اللهم ورحمتك .

ما ذا نقول ! إن هذا الخلاف قد أفسد على العلماء تفكيرهم بل إنه لقد كاد يفسد عليهم دينهم ويفتنهم فيه ؟ وهل يورث الخلاف إلا شرًّا ؟ وهل يولد

العناد إلا كفراً ؟ إن الذى يركب هذا الطريق لا يرى الحق إلا من خلال عواطفه المضطربة ونفسه الثائرة ، وهيهات أن يأمن الزلق ويسلم من العثار !

ومن غريب أمر هذا العناد أن رجلا جليلا هو ما هو فى دينه وعلمه وخلقه ينزل إلى هذا الميدان ، فيأخذ بخناق خصمه ، ويضربه بالحجة بعد الحجة حتى ليكاد الرجل يموت حياء وخجلا !

روى صاحب معجم الأدباء أن الإمام الشافعى رضى الله عنه دخل على هرون الرشيد ودخل معه محمد بن الحسن وكان إماماً فقيهاً أثيراً عند الرشيد وقد حمل فى نفسه ضغينة على الإمام الشافعى الذى جاء منافساً له فى دولة الرشيد ... فلما جلسا مجلس المناظرة قال محمد بن الحسن : تسألُ أو أسأل ؟ قال الشافعى ذلك إليك ... قال فأخبرنى عن صلاة الخوف أواجبة هى ؟ قال الشافعى : نعم ، قال محمد بن الحسن : ولِمَ ؟ قال الشافعى : لقول الله عزَّ وجل : « وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهمُ الصلاة فلْتقُم طائفةٌ منهم معك »[1] فدل على أنها واجبة : قال : وما تنكر من قائل قال لك : إنما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو فيهم فلما زال عنهم النبى صلى الله عليه وسلم زالت تلك الصلاة قال الشافعى : وكذلك قال الله عزَّ وجل لنبيه : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »[2] فلما أن زال النبى صلى الله عليه وسلم زالت عنهم الصدقة ؟ فقال محمد بن الحسن : لا .. فقال الشافعى : وما الفرق بينهما والنبى صلى الله عليه وسلم هو المأمور بهما جميعاً فسكت ... ثم قال : يا أهل المدينة : (يقصد الشافعى لأنه وافد من المدينة) ما أجرأكم على كتاب الله ، فقال الشافعى: الأجرأ على كتاب الله من خالفه ... قال الحسن : فقد قال الله

(١) النساء : ١٠٢   (٢) التوبة : ١٠٣

عزّ وجل « وأشهدوا ذوى عدل منكم » فقلتم أنتم نقضى باليمين على الشاهد » فقال الشافعى : كنا نقول بما قال الله ونقضى بما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولـكنك أنت إذا خالفت قضاء رسول الله فقد خالفت كتاب الله . . قال : وأين لـكم رد اليمين ؟ قال الشافعى : سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال وأين ؟ قال الشافعى قصة خويصة ومُحيصة ، وعبد الرحمن .. حين قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصة القتيل : تحلفون وتستحقون دم صاحبكم ؟ قالوا : لم نشهد ، ولم نعاين . قال فيحلف لـكم يهود » .. فلما أن نـكلوا[1] رد اليمين إلى اليهود .. قال الحسن : إنما كان ذلك استفهاما من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. قال الشافعى — موجها كلامه إلى الخليفة — يا أمير المؤمنين : هذا بحضرتك يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفهم من اليهود ! فقال الرشيد : ثـكلتك أمك يا ابن الحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفهم من اليهود ؟ . نطع وسيف[2] .

قال الشافعى : فلما رأيت الجد من أمير المؤمنين قلت مهلا يا أمير المؤمنين فإن الخصمين إذا اجتمعا تـكلم كل واحد منهما بما لا يعتقده ليقطع[3] به صاحبه .

---

(١) أى امتنعوا عن الحلف (يقصد حويصة وصاحبيه) .

(٢) يريد بقوله : نطع وسيف تهديد محمد بن الحسن بالقتل لهذا الرأى الذى كان سقطة منه .

(٣) أى ليفحمه ويسكته .

أجسام بلا أرواح

العيب الواضح فى الدراسات الفقهية أن هذه الدراسات قد اتجهت اتجاهاً كاملا إلى الاهتمام بالصورة والعناية بالشكل ، دون أن يكون للجوهر أو للروح حساب فى تقديرها وشيء من اهتمامها ، وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول إن علماء الشريعة قد شغلوا هممهم بالدراسات النظرية وفتنوا بها .. سواء الواقعى منها أم الوهمى الفرضى الذى يندر أن يقع فى الحياة ، وأنهم من أجل هذا لم يبقوا شيئا من جهدهم للتطبيقات العملية ، ولم يصرفوا بعض هممهم إلى ملاحظة المجتمع الإسلامى ودراسة سلوكه وما تحدثه تعاليم الشريعة الإسلامية وأحكامها فى أفراده وجماعاته من آثار تظهر فى صور الحياة التى يحيونها ، وتحدد مكانتهم بين المجتمعات الأخرى التى لا تدين بالإسلام ولا تجرى على أحكامه ومبادئه .

لم يعن أصحاب المذاهب الفقهية بهذه الدراسات العملية ولا بملاحظة سلوك الجماعة الإسلامية ، ولم يجعلوا من مناهج بحوثهم العناية بالجانب الأخلاقى و بناء هذا الجانب على نظريات واضحة مقررة ، وأنه إذا كان لأحدهم اتجاه إلى هذا البحث فإنما كان اتجاهه هذا عرضا عن غير قصد ، و بدون اهتمام ، و إنما غايته فيه استكمال أبواب الفقه ، واستيعاب أحكام الشريعة ، وترتيب مقولات السنة وأفعالها . . فهو حين ينظر فى هذا الجانب الخلقى إنما يلم به إلماماً ويعرض نصوص الشريعة فيه عرضاً دون أن يتعرض لها ببحث أو رأى ودون أن يدخل فيها مدخلا جديًا يثير جدلا ، وينشر خلافاً . . كما حدث

ذلك فى العبادات وفى المعاملات ! هذا ... مع أن الجانب الخلقى فى الشريعة الإسلامية هو الجانب الإيجابى منها ، وهو غاية أحكامها ، ومرمى تعاليمها التى تدور كلها حول تهذيب النفوس وتقويمها ، وتوجيه الناس إلى مقاصد الخير ومسالك النفع ... فبهذا كانت دعوة الرسول الكريم ، وكانت أوامر الشريعة ونواهيها ، وبمثل هذا يتحقق قول الله تعالى فى نبيه الكريم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[1] » ولا شك أن أهم مظاهر الرحمة الإلهية وأبرز آثارها فى الإنسان ، أن يَحمد خالقه ، وتَحسن سيرتُه ، ويُعرف بين الناس فضله .. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين[2] » والمحسنون هم الذين فتح الله قلوبهم للخير ، وحفظ جوارحهم من الشر ، وأقامهم على طريق الهدى فحسن قولهم ، وحسن عملهم ، وحسن فى الناس ذكرهم .

تلك هى غاية الرسالة الإسلامية .. خَلْق الإنسان الصالح فى المجتمع الصالح ، ولن يكون الإنسان صالحاً إلا إذا توازنت قواه المادية والمعنوية جميعاً وتلاقى بعضها ببعض على دواعى الخير ، وغايات الإحسان ... ولن يكون الإنسان إنساناً صالحاً إلا إذا كانت له شخصيته ومكانته فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وذلك لا يتحقق إلا بسيرته الطيبة وعمله النافع ، وآثاره البارزة فى ماديات الحياة ومعنوياتها جميعاً .

ويوم يفقد الإنسان معانى الخير فى نفسه ، ويتعرَّى من سمات الحسن والقبول فى مظهره وهندامه ، ويوم يقفر قلبه من الدين ، وتفرغ يده من الدنيا . إنه يومئذ غريب فى الحياة ، ضال بين الأحياء ، لا أمل له ، ولا خير فيه .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ . (٢) الأعراف : ٥٦

ورسالة الدين ، ومهمة رجال الدين أن يبعثوا فى الناس مشاعر الخير ، ويرسموا لهم صور الكمال ويغروهم به ، ويدفعوا بهم إلى العمل لتحقيق هذه المعانى الكريمة والصور الجميلة التى تتراءى لهم من خلال مشاعرهم التى يهزها الدين ، وتثيرها تعاليمه العالية الرفيعة .

والعبادات والمعاملات ، والآداب ، والأخلاق التى رسمتها الشريعة الإسلامية إنما غايتها تخريج نماذج طيبة للإنسانية فى صورة الإنسان المسلم الذى تظهر عليه آثار الإسلام فتكسوه رُواء يبهر العين ، وجلالا يملأ القلب ، ويثير عواطف الحب والتقدير التى يجدها الإنسان فى نفسه حين يلتقى بمثل هذا النموذج الكريم من الناس ولذلك يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق » .. ومن تمام مكارم الأخلاق فى الإنسان أن يَشِفّ ويصفو وأن ترتفع إنسانيته إلى المدى الذى تنتهى عنده غايات الإنسانية فى أسمى مدارجها ومواطن كمالها ... هنالك تجد الإنسان الذى تعرفه الآن أرقى المجتمعات والذى يعدونه مثلا للإنسان الكامل ويطلقون عليه لفظ « جنتلمان » .

وليس ال « جنتلمان » إلا هذا الإنسان الذكى القلب ، الوضىء النفس ، المتين الخلق ، النظيف فى هيئته ، المتجمل فى زيه ، الملحوظ بتقدير الناس واحترامهم أين حل أو أقام والذى لا شك فيه أن هذه الصورة الإنسانية قد امتلأ بها العصر الأول للإسلام ، وعرف التاريخ فى ذلك العصر نماذج كثيرة منها فى المجتمع الإسلامى ، بل نستطيع أن نقول إن المجتمع الإسلامى كله يكاد يكون ذلك « الجنتلمان » الذى يتحدث عنه الناس فى هذا العصر . .

الجنتلمان المصفى من شوائب المدنية الحديثة ، المترفع عن خبائثها ... ومن هذا استطاع المسلمون أن يدخلوا الحياة من بابها وأن يقيموا دولة ملكت أطراف العالم ، وذخرت بألوان العظمة والمجد ، وأرست قواعدها على أكرم المعانى وأسمى الفضائل .

نعم ... قام المسلمون الأولون على ركب الحياة يوجهونها ، ويدفعون بها إلى الغايات النبيلة ، والمثل الفاضلة ، ويقيمون بين الناس موازين العدل ، والحق بما ملأ الإسلام قلوبهم به من مشاعر الخير ، ومبادىء المودة والإخاء .. وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف : « إن المرء ليدرك بحسن خلقه مالا يدركه الصائم القائم » والمشار إلى إدراكه هنا إنما هو مما ترغب فيه النفوس الطيبة والهمم العالية من خير الدنيا والآخرة جميعاً ... وإذا كان هذا فى واقع الإنسان الواحد فهو فى واقع الجماعة أو الأمة أكثر حظاً وأبلغ أثراً ... فإن الأمة تدرك بحسن الخلق فى أبنائها ما لا تدركه بالصائمين القائمين فيها ، إذا لم يتحقق للصائمين القائمين ما يبعثه الصيام والقيام فى النفوس من المعانى الرفيعة والسلوك المحمود .

وقد يدخل فى وهم واهم أن حسن الخلق يجىء بغير تربية أو تهذيب . كلا فإن الخلق نتاج رياضة نفسية وتربية روحية ، أساسها العبادات الخالصة لله ، والاتجاه إلى الخالق العظيم اتجاهاً يفتح القلب ويجمع أشتات النفس ، ويصل الكيان الإنسانى كله بالملأ الأعلى ... وتلك هى العبادة التى تقوّم المعوج ، وتصلح الفاسد ، وتستأصل أدواء النفوس ، وتغسل أدران القلوب ، تلك العبادة التى يقول الله جل شأنه فى واحدة منها وهى الصلاة : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » والتى يقول الرسول الكريم فى واحدة منها

أيضاً وهى الصوم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

فما هذه العبادات المفروضة إلا صورة من صور التربية الأخلاقية الرفيعة ، فإن لم تثمر ثمرتها فى تهذيب النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وتعديل السلوك فهى عناء مُعنًّى وجهد ضائع ، وتعالت حكمة الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

* * *

نقول هذا لنسأل : أين المسلمون اليوم من تعاليم دينهم ؟ وأين أثر هذا الدين فيهم ؟ وأين ما ينطبع فى نفوسهم من المعانى الكريمة السامية التى تنطوى عليها أوامر هذا الدين ، وتشيع فى ألوان العبادات التى فرضها ورسم حدودها ؟

إن الأمر لمختلف جدًّا بين الدين الإسلامى ، و بين المسلمين المنتسبين إلى هذا الدين ، فالمسلمون فى واد ، والإسلام وتعاليمه ومبادئه فى واد آخر .. المسلمون صور ممسوخة مشوهة للإنسانية الكريمة الرفيعة ، والإسلام دين خلّاق للأخلاق السامية والمواهب الحية الواعية .

نعم — الإسلام شىء والمسلمون شىء آخر — فبينما يقف المرء وقفة الإجلال والتقدير لمبادئ الشريعة الإسلامية وتعاليمها السامية ، و بينما يقوم فى يقينه أن هذه الشريعة لابد أن تبلغ من نفس أتباعها مبلغا يرفع شأنهم و يعلى منزلتهم فى الحياة ، ويجعلهم « شامة[1] » فى الناس كما يقول الرسول الكريم فى حديث شريف له : بينما يقدر الإنسان فى نفسه هذا التقدير إذ تفجأه مرارة الواقع ، وتسوؤه قسوة الحقيقة فيما يرى فى المجتمع الإسلامى من تخلف ، واضطراب واختلال فى موازين الدين والدنيا معاً .

---

(١) الشامة : العلامة ، والمراد هنا أنها عنوان على التفرد والامتياز .

فحيث التفتَ المرء فى محيط المسلمين وجد عُواراً[1] ، ورأى مجتمعاً تخلى عن كل مقومات الحياة الكريمة العزيزة ، وقنع من دنياه بالقليل الخسيس يساق إليه فى أى صورة ... ولو كان بيد الذلة والمهانة .

هذا حق واقع يجب أن نقرره ، ونعترف به ... فإن من الحمق أن نغمض أعيننا عما يفتك بنا من أدواء ، وإن من الجبن أن نفر من الواقع ونشفق من ملاقاته على ما يكون فيه من مرارة وقسوة ... وإن من سقوط الهمة وخور العزيمة ألا تنزع بنا نفوسنا إلى التحول عن هذه الحال التى طال مقامنا فيها ، وصبرنا عليها . وإنه لمن الجرأة على الحق أن يقول قائلنا : أحسنوا الظن ... فإن المسلمين بخير وإنهم أحسن من كثير من المجتمعات الأخرى . وإنه لمن الضلال فى الرأى أن يقول قائلنا : إن هذه النظرات المتشائمة من شأنها أن تبعث اليأس فى النفوس ، وتسوق الفتور إلى الهمم ... لا ... فليس المسلمون بخير ماداموا على حالهم تلك ، وما دامت حياتهم قائمة على هذه التصورات المريضة التى يعيشون فيها ، ومادامت فلسفتهم فى الحياة قائمة على هذا الفهم السقيم للدين وأحكام الدين ، وما دام حظهم من الدنيا هذا الحظ التعس المنحوس !

من الحق والخير معاً أن نقرر هذا ، وإلا ظلمنا أنفسنا بما نخدعها به من أوهام كاذبة . وإلا ظلمنا الإسلام وظلمنا مبادئه ، وألقينا عليه من حياتنا ما يسىء الظنون به ، ويزوى الوجوه عنه .

إن المبادئ إنما ترى على حقيقتها فيمن يؤمنون بها ، ويعيشون على وحيها ، ويأخذون الحياة بأسلوبها ، وعلى قدر ما يرى فى اتباع مبدأ من المبادئ من آثار بقدر ما يكون من إقبال المقبلين عليه ، وإعراض المعرضين عنه .

---

(١) العوار : العيب والنقص .

تنظر فى هذا الصراع القائم اليوم بين المذاهب المختلفة فى العالم من ديمقراطية واشتراكية وشيوعية . . نجد هذا الصراع يستند فى كل مذهب من هذه المذاهب على ماحققه لأتباعه من خير فى الحياة ، وما مكن لهم من أسباب العيش الكريم ، ونجد ألوان الدعاية لأى مذهب لا تلجأ إلى عرض حقيقة المذهب فى صور كلامية ، وقضايا منطقية ، و إنما تلجأ إلى مظاهر الحياة المادية التى حققها المذهب لأتباعه ومكن لهم منها ، فإنها البرهان القاطع ، والدليل العملى الواقع ، الذى يراه الناس رأى العين ، و يعملون له حسابه فى ميزان التقدير والموازنة بين الأمم .

ولو أننا ذهبنا فى التبشير بالدعوة الإسلامية هذا المذهب العملى ، وهو الأسلوب المقنع من غير جدال — فعرضنا أنفسنا على العالم غير الإسلامى ، ودعونا الناس هناك إلى الدخول فى الإسلام والمشاركة فى مجتمعه — لو أننا فعلنا ذلك وقلنا للناس هذا هو المجتمع الإسلامى فادخلوا فى الإسلام لتكونوا جزءا من هذا المجتمع ... أفتظن عاقلا من العقلاء يستجيب لهذه الدعوة ، و يرضى أن يدخل فى جماعة المسلمين و يشارك فى الحياة التى يحيونها ؟ لاأظن ذلك أبداً . فالنفوس دائما متعلقة بتقليد من يعلو عليها ، و يبلغ من السمو مالا تبلغ ... ومجتمعنا اليوم أقل من أن تتجه إليه الأبصار وتهفو نحوه القلوب ... فقد تأخرنا كثيراً ... وتقدم غيرنا كثيراً ... ومن العبث أن ننادى المتقدمين المشرفين على أصفى موارد الحياة ليشربوا معنا كدرها ومرها !

* * *

لا تقل إن الناس قد انصرفوا عن الدين ، واستهانوا بتعاليمه وأحكامه ، و إن الهوى قد غلبهم على أمرهم فاندفعوا وراء بريق المدنية الحديثة وغرقوا

فى لججها ... و إن ما نزل بالمجتمع الإسلامى ، إنما هو من نتائج البعد عن الدين والاستخفاف به ... لا تقل هذا و إن كان حقًّا . . فإن هذا لا يغير شيئاً من الواقع الذى نعيش فيه ، ولا يصحح الرأى فى ضعف التأثير الدينى فى المجتمع : كما لا يصح ما استقر فى كثير من الأذهان من سوء الظن بالمتدينين المتمسكين بمظاهر الدين ، وأن الدين لم يكن له من أثر ظاهر فيهم ، فما هؤلاء الذين يراهم الناس حراصاً على الدين فى أداء فرائضه من صلاة وصيام بأحسن حالا فى ظاهر أو باطن من حال هؤلاء الذين نعدهم مفرطين فى دينهم بعيدين عنه .

ولو كان لهؤلاء المتدينين فضل بين الناس ، ومكان فى المجتمع ، ومظهر كريم ، ومخبر سليم ، لكانوا فى الناس قدوة ، ولطلاب الجمال والكمال أسوة لكن — وأقولها مع أسف بالغ — إن الصورة التى رسخت فى أذهان الناس عن هؤلاء المتدينين صورة مخيفة مفزعة ، ليس فيها ما يرضى السلوك الحميد ، و يحقق الخلق الكريم ، بل إن الأمر لأكثر من هذا . . فإن التجربة العملية قد كشفت للناس فى سلوك المنتسبين إلى الدين ما يستدعى الريبة والتهمة ، و إنه إذا ظهر فى الناس متدين سلقوه بألسنة حداد ، وتوقعوا من تلقائه نذر الشر .

هذه صورة واقعة فى الحياة ، شائعة فى المجتمع الإسلامى ، الحذر ، وتوقع الشر من جانب المصلين الصائمين :

صلى فأعجبنى وصام فرابنى   عدِّ القلوص عن المصلى الصائم[1]

ما هذا ؟ أيجىء الشر من منابع الخير ومطالع الهدى ؟ أيصلى المرء و يصوم ولا يكون حظه من الصلاة والصوم إلا هذا الشر المر ؟

---

(١) عد : أبعد ، القلوص : الناقة .

إن فى الأمر شيئا ، وإن خللا واقعاً فى صلاتنا وصيامنا وفى عباداتنا ، وإلا لكان لهذه العبادات مالها من آثار محققة فى تقويم الأخلاق وتهذيب النفوس ، وإقامة الإنسان على منهج الخير والفلاح .

والخلل الذى وقع فى عباداتنا هو أننا نؤديها فى صورة آلية جافة بعيدة عن مشاعرنا وأحاسيسنا ، فلا يخفق لها قلب ، ولا ينفعل بها وجدان . . ولو أن هذه العبادات جاءت عن هذا الطريق الذى يملأ النفوس جلالا ورهبة ، ويصل القلوب بالملأ الأعلى عن يقين ومعرفة — لكان لها فينا شأن غير هذا الشأن ، ولكان لنا فى الحياة مكان غير هذا المكان ، ولعرف الناس للدين فضله ، ولحمدوا له أثره . . وكيف لا يكون للدين هذا الأثر والله سبحانه وتعالى يقول فى الصلاة : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[1] » يقول سبحانه وتعالى ذلك بلفظ التوكيد ليبلغ الاطمئنان غايته من تلك الحقيقة إلى نفوس المصلين .. فإن الصلاة على وجهها الصحيح من شأنها أن تفعل فعلها فى النفوس فتنهى عن الفحشاء والمنكر . ذلك حق لا مرية فيه . . وهل فى كلام الله موضع لريبة أو شك ؟ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

ولكن أين الصلاة التى أمر الله بها وأين تقع من نفوسنا ، وكيف تلتقى بمشاعرنا وتلامس وجداننا ؟

لقد أحالتها البحوث الفقهية إلى عمليات حسابية ، وحركات آلية لا أثر للروح فيها . فهى أشبه بعملية أكل . . تتخم المعدة ، ولا تتصل بعقل أو قلب .

وماذا فى مباحث الصلاة عند أصحاب الفقه ؟ أبواب كثيرة ، ومباحث

---

(١) العنكبوت : ٤٥

متعددة كلها تدور حول ضبط الأرقام وتسوية الأشكال . . كيف يقف المصلى وكيف يسوى يديه ورجليه ؟ وكيف يركع وكيف يسجد ؟ وما الزاوية الهندسية التى يأخذها فى الركوع والسجود ؟ إلى غير ذلك مما يتصل بهذه الصور ، أما القلب وكيف يخشع ، والضمير وكيف يصحو ، والمشاعر وكيف تجتمع لهذا الموقف العظيم بين يدى رب العالمين فذلك مالم يكن فى نظر أصحاب الفقه موضع بحث أو محل جدل أو خلاف ، لأنه كما يبدو شىء عرضى لا يمس الصميم من الصلاة . . فإن الصلاة كما عرفها الفقهاء : « أقوال وأفعال مبتدأة بالتكبير ومختتمة بالتسليم » هذه الصورة الكاملة للصلاة فى مباحث الفقه ؛ وإنها لصورة باهتة هزيلة لا تهز قلبا ، ولا تحرك شعوراً ، لأن الفقهاء لم يلتفتوا إلى هذه الناحية ، ولم يكن همهم البحث فيها ، ولم يكن يعنيهم أن تحقق الصلاة أو لا تحقق شيئاً للمصلى . . أتريد دليلا لهذا القول ؟ . مهلا !

اختلف الفقهاء فى قراءة الفاتحة فى الصلاة كما اختلفوا فى القدر المطلوب قراءته . ومن وجود الرأى فى هذا الخلاف جواز قراءة آية من القرآن الكريم ولو لم يكن لها معنى ميستقل كآية « ثم نظر » وآية « مدهامتان » فذلك مما تصح به الصلاة عندهم عملا بظاهر قوله تعالى «فاقرءوا ما تيسر منه» على ما ذهب إليه بعض أصحاب المذاهب الفقهية .

إلى هذا الحد من الهزل أو السطحية فى الفهم ينتهى الرأى عند بعض الفقهاء فى موقف حاسم فى الصلاة . غايته ذكر الله وتمجيده بتلاوة ما يملأ القلب ويشرح الصدر من آى الكتاب الكريم . وطبيعى أن تلاوة آية « ثم نظر » أو آية « مدهامتان » ونحوهما — مما لا يحقق معنى إلا إذا ارتبط بما سبقه أو لحقه من الكلام — لا تبعث فى النفس أى إحساس ، ولا تثير

أى خاطر . وطبيعى أيضاً أن يكون الأمر بتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم إنما غايته الانتفاع بقراءة ما يُقرأ ، وأن ما تيسر لابد أن يكون له معنى واضح يقع فى نفس القارئ موقع العبرة والعظة .

ولكن اتجاه الفقهاء إلى العناية بالشكل والصورة جعلهم يفهمون كتاب الله ، ويقيمون أحكام الشريعة على هذه الأسس السقيمة التى لا يُربى فى ظلها خلق ولا يحمد معها سلوك .

ماذا نقول إن كثيراً من الفضائل التى كان يمكن أن نتحلى بها عن طريق الدين والتى كان هدف الدين أن يجملنا بها ويجعلها جزءاً من حياتنا قد فاتنا خيرها ، واحتجبت عنا مزاياها ، ووقفنا عند حد الصورة والشكل منها دون أن نصل إلى صميمها .

* * *

الإسلام دين النظافة والطهارة . لم يعرف دين من الأديان اهتم بالنظافة اهتمام هذا الدين ، حتى لقد جعلها سمة من سماته ، وفريضة من فرائضه ، وركناً من أركان الصلاة لا تصح إلا به ، وما جعل الوضوء والاغتسال من الجنابة إلا لتحقيق هذا المعنى ، ولملء نفس المسلم يقيناً بأنه على طهارة ظاهرة وباطنة معاً ، وأن طهارة جسمه وثوبه يقابلان طهارة نفسه وقلبه .

هذا هو مكان النظافة من الدين الإسلامى . إنها جزء منه ، وعنوان ظاهر فيه ، يقول الرسول الكريم فى شأنها «الطَّهورُ شطر الإيمان» . ويأخذ الرسول صلوات الله وسلامه عليه نفسه وأهله وصحابته بها فلا يرى منه ومن صحابته إلا ما يجمل فى العين من نظافة الأعضاء وهندسة الهندام وجمال الصورة .

كان الرسول الكريم حريصاً أشد الحرص على أن يرى أصحابه ومن حوله فى حال تستريح إليها العين من نضارة وجه ، ونظافة ثوب ، وحسن مظهر .

وأنه صلوات الله وسلامه عليه كان يلفت أصحابه إلى ذلك ويلقنهم دروساً نافعة موجهة لتحقيق هذه الصورة المحببة إلى النفوس .

لما دخل رسول الله عليه الصلاة والسلام مكة عام الفتح ، ودخل المسجد الحرام أتاه أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه ؟ . ثم أجلسه الرسول بين يديه ومسح صدره ، ثم قال له أسلِمْ فأسلم . وكان رأسه كالثغامة[1] ، فقال صلى الله عليه وسلم : « غيروا هذا من شعره » .

وكان أبو بكر يخضب شعره بالحناء ، وكذلك كان يفعل عمر وكثير من الصحابة وليس هذا إلا استكمالا لحسن المظهر وجمال الصورة .

هذا . وننظر فى المجتمع الإسلامى . وخاصة أهل الريف وأصحاب الصناعات والحرف وكلهم حريص على أداء الصلاة وتحقيق ما يلزم لصحتها من طهارة الثوب والبدن . ننظر إلى هذا المجتمع فنراه أبعد المجتمعات عن النظافة ، وأكثرها إهمالا لها واستخفافا بها .

هذا الجفاء المنتشر فى مجتمعنا ، وهذا الاستخفاف بنظافة الجسم والثوب ، وهذا الإهمال الواضح لإعداد المسكن وتنظيمه . كل هذا مما يشيع فى المجتمع الذى ينتسب إلى الدين الإسلامى . الدين الذى جعل النظافة ركناً من أركانه وفريضة من فرائضه .

لِمَ لم يأخذ المسلمون بهذا الأدب الإسلامى فيما رسم من مظاهر النظافة والطهارة ؟ ولِمَ لم يظهر فى هذا المجتمع أثر لهذه الدعوة الكريمة ؟ ذلك لأن الدراسات الفقهية لهذا الباب لم تقدم للمسلمين فيه إلا الصورة والشكل .

---

(١) الثغامة : واحدة الثغام وهو نبت يبيض إذا يبس ، ويشبه به الشيب فى بياضه . ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام « غيروا هذا من شعره » أى غيروا هذا اللون من شعره بالخضاب » .

السلبية فى الحياة

دعوة الإسلام إلى الطهارة والنظافة دعوة قوية صريحة ، جاء بها الكتاب الكريم فى صورة الأمر الواجب حيث يقول جل شأنه : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين .. وإن كنتم جنباً فاطهروا[1] » وقد أبانت السنة هذا الأمر الصريح وأكدته قولا وعملا . . واستجاب المسلمون لهذه الدعوة وتقبلوها فى اطمئنان ورضا . . لأن النظافة مع كونها شعيرة من شعائر الدين وعزمة من عزائمه هى فى ذاتها أمر طبيعى فى حياة الناس ، ومطلب من مطالب الإنسان الذى يشعر بوجوده ويحس بإنسانيته ، ويرى أنه ليس أقل شأناً من بعض الحيوانات التى تنظر إلى نفسها ، وتعنى بمظهرها ، وتتعهد كيانها كله بالنظافة والتسوية والتهذيب .

فإذا جاء الدين الإسلامى يدعو إلى النظافة ويأمر بها فإنما لينبه من غفل — وما أكثر الغافلين — وليلزم من أهمل — وما أكثر المهملين — ، ثم ليرتفع بالنظافة والطهارة إلى هذه المنزلة الكريمة فيسلكها فى شعائر الدين وينظمها فى فرائضه لتقع فى النفوس موقعاً لا تجد معه مصرفاً عنها . . إن لم تنزل فيها على حكم الطبيعة ، نزلت على أمر الدين وحكم الشريعة .

والطهارة التى هى شريعة هذا الدين الحنيف ، وشعار المسلم القائم على هداه ، أعم وأشمل من النظافة ، فقد يكون المرء نظيفاً ولا يكون طاهرا .. أما الطاهر فلا يكون إلا نظيفا . . فالمسلم المحقق لدعوة الإسلام طاهر دائماً . . نظيف أبدا .

(١) المائدة : ٦

ولو جرى المسلم فى الطهارة والنظافة على ما رسمه الدين ، واستشعرت نفسه مقاصد الإسلام وغاياته من هذا الأمر الملزم بهـا ، لظهر فى الناس على أكمل صورة وأجملها فى نظافة جسمه ، وتسوية هندامه ، وتنسيق مظهره ، ولأصبح المجتمع الإسلامى كله صورة رائعة متناسقة الألوان تملأ العين بهجة وجلالا .

ولـكن مجتمعنا الإسلامى لم يحفل بالنظافة ، ولم يأخذ من أمرها بما تدعو إليه الطبيعة ولم ينزل فى شأنها على حكم الدين ، حتى لـكأن الدين كان من الأسباب الداعية إلى هذا الإهمال الظاهر ، والغفلة الصريحة فى شأن طهارة الجسم ، ونظافة الثوب ، وهندسة الهندام .

لا تقل إنه الفقر الذى قضى على المجتمع الإسلامى بالنزول إلى هذا المستوى الخسيس من سوء الحال ، ورثاثة المظهر . فإن أفقر فقير فى أيامنا تلك يملك من وسائل التنظيف و إمكانياته ما لم يكن ميسوراً لأصحاب النعمة والثراء من سكان الجزيرة العربية الذين تفتحت مشاعرهم لدعوة الدين إلى النظافة فعرفوا السبيل إليها وحققوها على أكمل وجه . . والمـاء لدينا فى متناول كل يد لا يشق على أحد منا أن يأخذ ما يريد . . و بغير ثمن . . والمـاء هو الأصل فى كل نظافة تشمل الثوب والبدن جميعاً ، ولهذا قيل : « أطيب الطيب الماء » ومع هذا فإن المسلمين يؤدون الصلاة ، و يقومون بما يتصل بها من صور النظافة والطهارة ولا يكاد يظهر عليهم أثر لهذه العملية التى تتكرر خمس مرات كل يوم ، والتى كان من شأنها لو أحسن أداؤها أن تظهر المسلم فى أحسن صورة تراها العين للإنسان الجميل النظيف .. ولـكن دعوة الدين إلى النظافة والطهارة قد لعب بها الجدل ، ودخل بها الخلاف المذهبى فى نظريات وقضايا

منطقية فأحالها صوراً ذهنية باهتة لا تحرك خيالا ، ولا تثير شعورا ، ولا تنزع بالإنسان إلى عمل جدى نافع .

دعوة الإسلام إلى الطهارة ، دعوة قوية واضحة تنبض بالمشاعر الهاتفة إلى العمل ، المغرية به .. وأى دعوة أقوى وأبلغ ، وأوضح ، وأدعى إلى الاستجابة من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة .. فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم .. وأرجلكم إلى الكعبين .. وإن كنتم جنبا فاطهروا » فأى إنسان لا يفهم مدلول هذا الأمر ولا يحقق المطلوب منه من غير شرح ودون أن تحدد له حدوده وتبين له طرائقه ولكن فقهاءنا — وذلك شأنهم فى كل مسألة من مسائل الدين — قد جعلوا من هذا الأمر مشكلة تحتاج إلى بحوث واسعة ، وعرض مستفيض حتى تنكشف للناس ، وتقع موقع الفهم فى محيط المسلمين ! ! .

انظر فى كتب الفقه ، وقف عند باب « الطهارة » .. إنك ستجد أبوابا تدخل بك إلى أبواب وفصولا تدفع بك إلى فصول تحدثك عن الوجه واليد وعن الرجل والرأس ، وعن الكعبين والقدمين .. وتبسط لك القول عن مكان كل عضو من هذه الأعضاء .. الوجه . أين هو ؟ وماحدوده وماطوله ؟ وما عرضه ؟ والقدمان .. أين هما ؟ وما هما ؟ وما حدودهما ؟ وهل يدخل الكعبان أو لا يدخلان فيهما ؟ .. وهكذا يجرى البحث والتحليل والتحديد فى كل عضو من الأعضاء لا بد أن تبين لك جغرافيته وما عليه من هضاب وسهول ، ومافيه من تعاريج وغضون .. فإذا انتهى بك البحث إلى كيفية غسل هذه الأعضاء بالماء رأيت خلافاً محتدما على الطريقة التى يتناول بها الماء ، وكيف يسيل على كل عضو .. وما الزمن بين غسل عضو وعضو . .

والتجاعيد ، وكيف ينفذ إليها الماء ، وشعر اللحية وكيف يتخلله .. وهكذا ..
ثم قبل هذا وذاك يقدم بين يديك بحث على طويل عن الماء الذى يتطهر به ويصح منه الوضوء .. الماء .. ومتى يكون طاهراً مطهرا ؟ ومتى يكون طاهراً غير مطهر ؟ ومتى يكون نجسا ؟ .. ثم أنواع الماء .. ماء البحر ، وماء المطر ، وماء البرد ، وماء الثلج ، وماء العيون ، وماء الآبار .. وهكذا .. وكل موضوع منها يحتاج إلى مباحث فى علوم الكيمياء والطبيعة والحيوان والنبات وإلى عمليات تحليلية مرهقة تلهب الأعصاب ، وتضنى الفكر .. وما غاية هذا العناء كله إلا لتعرف الماء ! الماء الذى ضرب المثل بالعجز عن تعريفه .. لأنه ماء .. واقع فى البديهيات التى تتأبى على التعريف ! .

أى إنسان لا يعرف الماء الذى تقوم عليه حياته ! .. وأى إنسان لا يدرك بفطرته الماء الصالح للشرب أو النظافة ! إنه إذا كان فى الناس من يحتاج إلى من يدله على هذا الماء فهو إنسان معتوه قد رفع عنه التكليف .. إن الحيوان ليتهدّى بفطرته إلى الماء الذى يراه صالحاً لإرواء ظمئه .. وإنه ليموت عطشاً دون أن يقترب من ماء فاسد بأى لون من ألوان الفساد .

وأى إنسان لا يعرف أعضاءه التى طلب إليه الشرع أن يغسلها عند الوضوء . وهل يعلَّم الإنسان كيف يغسل وجهه أو يديه أو رجليه ؟ . . إن هذه أمور يعرفها الصغار والكبار من غير درس أو تعلم لأنها من صميم الحياة اليومية التى تدور فى حياة الناس ، لا فرق بين مسلم وغير مسلم . . فما حاجة المسلم إلى أن يلتفت إلى هذه المسائل ويجعلها مادة للدرس والبحث ؟ وما جدوى المسلمين من ضياع الوقت فى الوقوف عند هذه المسائل واعتبارها من الأمور الجدية

المستأهلة للبحث والنظر ؟ . . إنه لمن الإزراء بالعقل أن يشغل بهذه البدهيات وإنه لمن الاستخفاف بالوقت أن يضاع فى الوقوف عندها .

إن الذى ينظر إلينا من خلال هذه المباحث يرانا أمة تعمل فى غير ميدان العمل . . إنها أمة تبنى فى الهواء ، وترتوى من السراب ، وتعيش على مضغ الـكلام ، وتأتدم بالسخف والهراء .

أيعلَّم الإنسان كيف يتناول اللقمة ؟ وكيف يمضغها ؟ أيعلم كيف يشرب المـاء ؟ وكيف يتنفس الهواء ؟ وإذا احتاج بعض الصغار أو الـكبار إلى شىء من هذا فهل يكون ذلك فى صورة دراسات ذهنية فلسفية مرهقة ينفق فيها الجهد المضنى والزمن الطويل ؟ إن ذلك لهو الضلال البعيد ، وإن ذلك لجدير بأن يذهب بمن يعانيه ويعنى به مذاهب الهلـكة والضياع !

لو تركنا فقهاؤنا نتوضأ كما أمر الله ، دون أن يأخذونا بهذه الدراسات التى تمزق عملية النظافة تمزيقا فتجعل بعضها واجبا ، وبعضها سُنة ، لـكان للوضوء فينا شأن غير الشأن الذى نعرفه ، ولـكان همنا منه أولا وقبل كل شىء النظافة . . والنظافة الـكاملة . ولـكنها محنة امتحن بها المسلمون ، وبلاء قد ابتلوا به ، فصرفهم عن الجد إلى هذا الهزل والعبث !. ماذا أقول ؟ انظر : مما جعله الفقهاء من سنن الوضوء المضمضة (للفم) والاستنشاق (للأنف) ومسح الأذنين .. وتلك أفعال فعلها الرسول صلوات الله وسلامه عليه عند الوضوء . ولو لم يكن هذا من فعل الرسول لـكان من مقتضيات غسل الوجه ، فإن أى إنسان يغسل وجهه لا يكاد يغفل عن هذه الأمور لأنها شىء متصل بالوجه ، ولأن نظافتها أمر تدعو إليه الحاجة أكثر مما تدعو إلى الوجه نفسه ،

ولم يشر إليها القرآن الكريم فيقول : فاغسلوا وجوهكم وأفواهكم وآنافكم وآذانكم ، لأن ذلك أمر لابد أن يقع وما كان فعل الرسول إلا تحقيقا لما لابد منه ، ولكن فقهاءنا — كى يستقيم لهم من عملية الوضوء مبحث — قد جعلوا غسل الوجه — منفصلا عن هذه الأعضاء — واجبا ، وجعلوا غسل هذه الأعضاء سنة ، والسنة — كما نعلم — دون الواجب ، فإذا غسل المسلم وجهه وغفل عن فمه وأنفه وأذنيه صح وضوؤه لأنه حقق الغرض ! . فأى نظافة هذه وأى شعور بها يدخل إلى نفس المسلم المقبل على الوضوء وهو ينظر إلى أعضائه نظرات متفاوتة ، فيؤثر بعضها على بعض ، ويخص بعضها دون بعض بمزيد من العناية والالتفات ، ولو أن فقهاءنا تركوا هذا المنظر الشكلى والتفتوا إلى لب الشريعة وصميمها لما فصلوا هذه الأعضاء عن الوجه ، ولما جعلوها دونه ، ولما أنزلوها المنزلة الثانية أو الثالثة فى النظافة ، ولعدوها جميعا شيئا واحدا تجب نظافته ، وأن الأمر بغسل الوجه أمر بغسلها ، وأن ما فعله الرسول هو شرح لهذا الأمر الملزم (وهذا رأى رآه الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه وانفرد به دون الأئمة) .

هذا مثل من أمثلة كثيرة للمباحث الفقهية التى عشنا فيها أزمانا طويلة ولا نزال نعيش عليها ، والتى جعلت أوامر الشريعة ونواهيها أشلاء ممزقة وصوراً شائهة ممسوخة .. وعبارات جافة مرددة لا تبعث شعوراً ولا تحرك رغبة ولا تعمر قلبا ، ولا تصلح نفسا .. ومن هنا كان بعدنا عن الدين ، وإن قمنا فى ظاهر الأمر بما يفرضه الدين .

قلنا إن فقهاءنا قد أغفلوا الجانب العملى من الشريعة الإسلامية فلم يلتفتوا إلى سلوك المجتمع الإسلامى ، فلم يرتبوا على هذا السلوك ما يحسب حسابه فى

ميزان الحياة الدينية والدنيوية جميعا للإنسان ، وإذا كان فى كتب الفقه بعض المباحث الأخلاقية فإنها بحوث هزيلة باردة ، لا تثير شعوراً ، ولا تنزع بالإنسان إلى عمل .. عبارات مرصوصة ، ونقول غير محققة تتحدث فى فتور عن فضائل تعارف الناس عليها ، وأمرت الشريعة بها .. كالصدق ، والأمانة ، والعدل ، والزهد ، وما إلى ذلك من كريم الصفات التى يعرفها الناس جميعا ، ويدركون فضلها .

اقرأ ما شئت من هذه البحوث ، ورددها صباح مساء ، فإنك لن تجد لها فى قلبك مكانا ولا تحس لها بين جنبك صدى .. ذلك لأنه لم يكن منظوراً إليها من الفقهاء نظر جد واهتمام ، حتى لكأنها نافلة .. لا يضيع بضياعها خير كثير ، وهم لهذا لم يحفلوا بها ولم يدفعوا بها إلى الناس فى حرارة وقوة ، ولهذا جاءت فى كتب الفقه آخر باب من أبوابه ، جاءت وقد استنفد الفقهاء كل جهدهم فى الأبواب الأولى ، فوصلوا إلى باب الأخلاق والفضائل وقد برح بهم الجهد ، وأضناهم الجدل واستهلكهم الخلاف ، وكان من حق هذه المباحث الأخلاقية أن تأخذ مكان الصدارة ، وأن يوجه إليها النظر الجدى والبحث العميق ، وأن ترتبط بواقع الحياة ارتباطا كاملا حتى يتأثر بها الناس ويعيشوا فى ظلها ويعملوا بوحيها .

وفى الإسلام المثل الكاملة كلها ، والأخلاق الفاضلة جميعها جاء بها على أوفى صورة تقيم للناس دنياهم وأخراهم جميعا على أقوم السبل ، وأمتن أساس .

ولو قدر للمجتمع الإسلامى أن ينتفع بمبدأ من مبادئ الإسلام وأن يعيش فى ظل خلق من أخلاقه لكان مكانه فى الحياة أكرم مكان ، ولكان

أفراده وجماعاته مُثـلا طيبة فى كل مجتمع ، ولسلمت للمسلمين دنيـاهم وأخراهم جميعاً .

والمثل الفاضلة والأخلاق الرفيعة والمبادئ السامية لا تفعل فعلها فى النفوس ، ولا تحل مكانها من القلوب إلا إذا أحسن عرضها على الناس ، ودخلت عليهم مدخلا لطيفاً ، وجئ لهم بها فى صورة مغرية محببة تتفتح لها المشاعر ، وينفعل بها الوجدان ، وتهش لها النفس ... هنالك تتسرب إلى كيان الإنسان وتسرى فى فكره ، وتتحول إلى قوة دافعة إلى العمل فى ظل وحيها وإلهامها .

نرى هذا واقعاً فى الحياة العملية ، ماثلا فى كل مبدأ قدر له النجاح واجتمع حوله الأنصار والأتباع ... فالثورة الفرنسية مثلا إنما كانت من وحى الكُتَّاب الذين تقدموا الثورة ببعض المبادئ التى آمنوا بها وأحسنوا عرضها فى مؤلفاتهم وخطبهم ، وكذلك كانت الثورة الروسية .. إنما هى مبدأ آمن به أصحابه وأحسنوا عرضه وعرفوا طريقه إلى عقول الناس وقلوبهم .

وهكذا كل مبدأ . أو فكرة . إنما يكون نجاحها منوطاً بحسن عرضها ، ووصلها بالناس وتعهدها فيهم ، فإذا لم يقم عليها من يحسن عرضها ، ويجيد توجيهها فإنه مقضى عليها لا محالة .

تعرف إلى هذا الشعور الذى يثيره فى نفسك نغم موسيقى ؛ يهتف بالدعوة إلى ميدان القتال ويحث على الجهاد فى سبيل الله والوطن . فقد يحسن الفنان أداء هذا النداء فيبعثه إليك من موسيقاه ثورة ثائرة تملأ قلبك إقداماً وجرأة ، وتبعث فى يقينك قوة وعزماً حتى لكأنك فى ميدان المعركة ، تواجه العدو وتصادمه ... وقد لا يحمل الفنان هذا الموقف ولا يقدر على أدائه لأنه لا يؤمن به ، ولا يعيش فيه . فيرسل إليك أصواتاً زائفة تنبح كما تنبح الكلاب بالدفاع

عن الحرمات أو الثأر لها ، وكأنها هذيان محموم أو همهمة نائم ، وإذ أنت وقد فترت نفسك ، وضعف عزمك واستنام حماسك وأسلمك هـذا النغم إلى نوم طويل .

فى حرب فلسطين هتف أحد الشعراء بنشيد « الجهاد » وكان نشيداً بليغاً فى عبارته قويًّا فى معناه ... وتناوله موسيقى معروف فوضع له اللحن ، ورتب له أساوب الغناء ... وطلع به على الناس !! وكان المتوقع أن يبلغ هذا النشيد من النفوس مبلغا يملؤها نقمة على العدو وتربصاً به . وأن يكون هذا الصوت هديراً مدوياً يملأ أطباق السماء ... وأذكر أننى كنت أستمع إلى هذا النشيد ترسله محطة الإذاعة من فم هذا «الفنان» الـكبير ،وكان من بين عبارات النشيد كلمة « واندفعنا » ، وتحسست إلى مشاعرى لعلى أجد لهذا « الاندفاع » صدى فى نفسى ، ولعله ينتزعنى من مجلسى إلى ميدان المعركة انتزاعاً ... فوجدت عجباً ... لقد رأيتنى فى حركة لا شعورية أستجيب لهذا الانقباض المفاجىء الذى سرى فى نفسى ، وأتراجع قليلا إلى الوراء كلما ردد « الفنان » كلمة « واندفعنا » ... وحاولت أن أخرج عن تلك الحال ، وأن ألبى دعوة الفنان وأندفع إلى الأمام ... ولـكن عبثاً كنت أحاول ... فإن طراوة الموسيقى وخنوثة الصوت ، وبرود النفس ... كل أولئك قد خلق جوًّا غريباً . جعل هذه الـكلمة تدخل إلى أذنى متلصصة خائفة ، وكان من حقها أن تنفذ إلى قلبى كما ينطلق السهم إلى الرمية ، وأن تدوى فى كيانى دوى الرعد ، ولـكنها جاءت هزيلة ضعيفة ميتة .. فملأت نفسى انقباضاً وذعراً ، وأخذت شعورى بهذه الحركة العكسية المفاجئة على غير ما كنت أتوقع من هدير الاندفاع وزئيره

العرض الحسن للفكرة ، والاخراج المحكم لها هو الذى يبلغ بها الغاية إلى عقول الناس وقلوبهم معاً ، وهو الذى يمكن لها فى الحياة ، ويكثر من حولها المؤمنين بها والمنتصرين لها .

فهذا القرآن الكريم بين أيدينا ، وفيه المبادئ والأحكام والأخلاق التى بنى منها محمد صلوات الله وسلامه عليه المجتمع الإسلامى الأول ... فلقد استطاع النبى الكريم بأسلوبه القوى الرائع و ببصيرته الحكيمة النافذة ، و بخلقه العظيم ، وعقله الكبير أن يسكب هذه المبادئ فى قلوب المسلمين وعقولهم سكبا ، وأن يقيم الناس عليها ، ويجعل لها سلطاناً عليهم ، فلا يفكرون إلا بوحيها ، ولا يعملون إلا فى ظلها ..

وما أصيب المجتمع الإسلامى بما أصيب به من ضعف وخذلان ، إلا لبعده عن الدين وتخليه عن مبادئه ، وما بعد المسلمون عن الدين ، ولا تخلوا عن مبادئه إلا حين خلا مجتمعهم ممن يحسنون عرض حقائق هذا الدين ، و يصلون القلوب به ، وإلا حين فاض فيهم طوفان هذه البحوث الفقهية فأغرقتهم فى لجج الخلافات المذهبية والطائفية ، وجعلت منهم أحزاباً وشيعا يكفر بعضها بعضا ، ويذيق بعضها بأس بعض ، وتقطع العمر فى اجترار هذا الزاد الذى خلا من كل عناصر التغذية التى يقوم عليها بناء الأفراد والجماعات .

ولقد سجل التاريخ للحياة الإسلامية هذه الظاهرة المستندة إلى الواقع الذى لا يقبل شكا ولا جدلا . . . فحين كان يهيء الله لجماعة من الجماعات الإسلامية إنساناً رشيداً مستنيراً فاقهاً للشريعة الإسلامية . . نجد هذه الجماعة قد بعثت بعثاً جديداً ، ولبست ثوب الحياة والقوة والعزة ، و بدت عليها أمارات الكمال والسيادة ، ونزعت بها هممها إلى مواطن المجد والعظمة ..

وحين تفقد الجماعة الإسلامية هذا التوجيه الرشيد ، وتخلو آفاقها من الفاقهين الأذكياء يتسلط عليها أدعياء الفقه والدين ، فيصبح المسلمون ويمسون وهم فى مهب هذه الريح العقيم التى تحمل إليهم من أوامر الدين ونواهيه صوراً شائهة ، وحقائق مهلهلة لا تثبت فى نفس ولا تستقر فى يقين .

إن مهمة رجل الدين الذى يرى نفسه جديرا بهذا الاسم ، أهلا لحمل هذه الأمانة ، مهمة شاقة ، وإن مسئوليته لمن أخطر المسئوليات . . إذ كان طبيبا للنفوس . . موجها للعقول . . يكشف الداء ، ويقدم الدواء ، ومن كانت تلك رسالته فلا بد أن يكون إنسانا قد اجتمعت له أسباب الزعامة والقيادة ، وكملت فيه صفات الزعيم القائد بما له من قوة الشخصية ، وسعة الأفق وصفاء الذهن ، وذكاء القلب إلى ماعنده من علم بكتاب الله ومعرفة بحقائق الشريعة وأسرارها . ثم إلى هذا كله سيرة حميدة وسلوك كريم يقيمه فى الناس مثلا طيبا لمن فقه الدين وعمل به وانتفع بما عمل . . إنه حينئذ يستأهل أن يكون فى مكان التوجيه والقيادة للمجتمع الإسلامى . . وإن المجتمع الذى يقع فى محيط قيادته وتوجيهه ليبلغ من أمره رشدا ،فهل صادف مجتمعنا الإسلامى كثيرا من رجال الدين على هذا السمت؟ وهل اتصلت حلقات هذه السلسلة من العلماء الفاقهين فى مختلف العصور ؟

لقد مرت بالمجتمع الإسلامى ظروف قاسية مرهقة بما وقع فيه من فتن وخلافات داخلية بين أصحاب النفوذ والسلطان . . وبما شن عليه من غارات خارجية من الطامعين فيه والمتربصين بالدين .. وكان من أثر هذا أن انحطت أحوال المسلمين ، ومشى الجدب والفقر فى حياتهم المادية والمعنوية ، فأفسح ذلك فى المجال لكثير من النهازين والمرتزقة يدخلون على الناس باسم

الدين ، و يفرضون أنفسهم عليهم فرضا فى مجال التعرف إلى الإسلام ومبادىء الإسلام وفى مقام التذكير بأوامر الله ونواهيه ، وتوجيه الناس إلى الطريق القويم الراشد .

ولقد تزيا هؤلاء بزى العلماء ، وأخذوا سمت الفقهاء ، وتقدموا موكب المسلمين وتصدوا لقيادتهم وتوجيههم .. وما كان لمثل هذه القلوب الخاوية وتلك النفوس المريضة المهزوزة أن تحسن القيادة وأن تجود بخير ، وأن تبعث فى الناس نوازعه و إنما كان موقفها من المسلمين موقف دعاة الهزيمة والفرار من ميدان المعركة ، فذلك فى شريعة الجبناء أسلم وأضمن للبقاء وإن كان فيه ما فيه من خزى ومذلة وعار . وكأنما كانت مهمة هؤلاء الذين قعدوا مقعد الرجال فى المجتمع الإسلامى ، هى عزل هذا المجتمع عن الحياة ، وتفريغه من كل طيب فيها ، وسوقه سوقا إلى مواطن الجدب والحرمان فانطلقوا أبواقا تعلن الهزيمة والانسحاب من الحياة ، والانصراف عنها جملة .. وترددت فى آفاق العالم الإسلامى هذه الدعوة الانسحابية من الميدان الإنسانى العامل ، وسرى فى مشاعر المسلمين فعل هذا « المخدر » المنيم الذى وجد فى النفوس الضعيفة والقلوب المريضة تجاوبا تجد فى ظله ما يجد الكسالى والخائرون من استخفاف بمظاهر العزة والمجد ، وتخفف من مطالب العيش الكريم الذى ينزع إليه أصحاب الهمم العالية والعزائم القوية ، والذى لا ينال إلا بالجهد الجاهد والعمل المتصل .

وقد أثمرت هذه الدعوة ثمراتها النكدة ، فتغشت دنيا المسلمين غواشى الفقر والحاجة ، وتمشت فى محيطهم أشباح الخراب والدمار ، ونزلت عليهم ضربات الأقوياء تأخذهم بالذلة والهوان .. فصاروا من الحياة على هامشها المظلن بهم على أودية العدم والفناء .

والعجب أن معظم هؤلاء المتّسمين بسمة الفقه والدين قد خالف فعلُهم قولَهم فبينما هم يزهّدون الناس فى الدنيا و يحرضونهم على النفور منها ، والتكره لها إذ هم أنفسهم أشد الناس كَلَبا على الدنيا ، وحرصا على القليل التافه منها .. يذودون الناس عن طيبات الحياة ، بينما يسيل لعابهم على ما يلوح لهم من فتاتها ، و ينعون على الناس الحرص على جمع المال ، وهم أحرص الناس على ما تنال أيديهم منه .. بحق و بغير حق ..

ومن قبلُ فضح المعرى هذه الفئة المضللة الزائفة من أدعياء العلم والدين.. فهم أبدا يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم : يقول المعرى :

رويدك .. قد غُررت وأنت حر ... بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء[1] صبحا ... ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء ... وفى لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى ... فمن جهتين لا جهة أساء

وهو لم يسىء من جهة واحدة ولا من جهتين ، ولكن من جهات كثيرة فقد أساء إلى نفسه بما اقترف من آثام ، وأساء إلى الخُلق والفضيلة بانتسابه إليهما وجرأته عليهما ، وأساء إلى الناس بهذا التحريض على فعل الشر... وأساء إلى الأخيار من دعاة الهدى بما أدخل على الناس من التشكك فيهم والحذر منهم .

ولا شك أن هذا السلوك المعيب ، وهذا التناقض البين بين الأقوال والأعمال قد أوقع جمهور المسلمين فى حيرة و بلبلة لا يدرون معها ما الحلال ولا الحرام ، ولا الخير ولا الشر ، ولا الدنيا ولا الدين .. ولاشك أنه إذا اختلت موازين الأخلاق فى أمة ضل سعيها ، وساء مصيرها ..

(١) الخمر .

الحركة الانسحابية . . .

امتلأت كتب الفقه والحديث والسير بالمباحث المتشعبة فى التهوين من شأن الدنيا ، والاستخفاف بها والزراية عليها ، وصرف المسلمين عنها صرفاً قاسياً يحرم عليهم طيباتها وما اشتملت عليه من خير . . وقد أهابت هذه المباحث بالمسلم الحريص على دينه أن يأخذ نفسه بالحرمان ، وأن يعطى الحياة ظهره فلا ينال منها إلا ما يمسك عليه رمقه .

وتعرض لنا كتب السيرة أبطال المسلمين فى صور مطبوعة بطابع العزلة عن الحياة ، والهرب منها ، واجتناب كل طيب فيها ، حتى ليخيل لمن يقرأ هذه السير أن عظمة هؤلاء الأبطال إنما تستند أول ما تستند إلى الزهد فى طيبات الحياة ، والابتعاد عن مجالات الغنى وعما يتصل بالغنى . . وأنه لكى تقع هذه السير موقع العبرة والعظة ، ولكى تملأ نفوس المسلمين وتغزو مشاعرهم فقد أضفى عليها الفقهاء ألوانا زاهية معجبة من النصوص الدينية التى لا يجد معها المسلم إلا الإيمان والتسليم بعد تخريجها على الوجه الذى يحلو لهؤلاء الفقهاء والعلماء تخريجها عليه .

ولو استقامت هذه الدعوة الانسحابية التى يصورها لنا رجال الفقه لما استقام للإسلام مجتمع ، ولما قامت فيه دولة ، ولما عزت فى ظله أمة . . بل ولما أقبل عليه ودخل فيه إلا أمساخ الناس من المرضى وأشباه المرضى .. وكيف ينتظم حال مجتمع لا يتجاوب مع الحياة ، ولا يمضى فى ركبها ولا يزاحم فى معتركها ؟ وكيف تقوم دولة لا تأخذ بأسباب القوة والعزة التى تستند إليها الأمم وتعتصم بها الشعوب ؟ .

وكيف يُسلك المرء فى مسالك الناس إذا لم يخض معهم معترك الحياة ، ويلتقى بخيرها وشرها على السواء ؟ .

إن الذى يعتزل الحياة هو أحد رجلين : رجل ضعيف العزيمة خائر الهمة يرضى أن يعيش فى الحياة كما تعيش الهوام ، فهو فى ضعة نفسه ، وسقوط همته أعجز من أن يزاحم فى الحياة ، أو يخوض غمراتها .. ورجل استطاع أن يقهر فى نفسه دوافع الحياة وأن يخاص من رغائبها فرارا من الواقع وتحرجا من أن تزل قدمه ، ويقع فى محارم الله .. وكلا الرجلين غير محسوب على الحياة ، ولا معدود بين الأحياء .. فلا يحسب فى الحياة ولا يعد من أهلها من لا يشارك فيها ، يغرس فى كل مغرس ، ويجنى من كل ثمر .

هذه الدنيا لمن ؟ ولمن هذا الخير المخبوء فى باطن الأرض ، والمحشود على ظهرها ؟ إنه للإنسان ، وللإنسان وحده .. فهو خليفة الله فى هذه الأرض وإليه مقاليد أمورها .. فإذا لم يقم على هذا الأمر ، ولم يحمل عبء هذه الرسالة كان مقصراً فى حق نفسه ! وفى حق الجنس البشرى كله ، بل وفى حق الحياة نفسها ، حيث عطل قواها المهيأة للازدهار والإثمار .

والإسلام دين الحياة القوية الزاخرة بألوان الخير .. القائمة على سيادة الإنسان وانتفاعه بكل ما فى الدنيا من طيبات .. وإلا فما استحق الإسلام أن يكون دين البشرية كلها ، ولما استحق أن يكون دين الأجيال المتعاقبة من مبدأ الرسالة إلى نهاية هذا العالم ، ولما كان لهذه الآيات الكثيرة فى كتاب الله مكان فى هذا الكتاب . فلِمَ يخاطبنا الله سبحانه وتعالى بقوله « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً[1] » ؟ وبقوله « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه[2] » ؟ وبقوله « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً

(١) البقرة : ٢٩ (٢) الجاثية : ١٣

طريًّا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها [١] » ؟ وبقوله « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه [٢] » .

فما هذه الآيات وأمثالها إلا دعوات صريحة إلى الإنتاج والعمل الدائب المثمر لكى تعمر الحياة ، ويهنأ للناس فيها المقام ..

تلك هى دعوة الإسلام إلى الحياة ، وهذه هى سبيل المسلمين إليها .. السعى ، والعمل والجهاد ، واقتطاف ثمرات هذا الجهاد والانتفاع بها فى إقامة حياة كريمة ، وبناء مجتمع قوى عزيز تنتظمه روح الخير والحب ، وترف عليه طيوف الإخاء والمودة ، لتطيب حياة الناس وتسير السفينة بهم فى ريح رخاء .

ولكن انظر كيف تُصوَّر لنا الحياة فى بحوث العلماء . ومقولات الفقهاء وكيف ترسم لنا مناهج العيش فيها ؟ . . إنها صورة مخيفة مفزعة لهذه الحياة ، ومنهج سلبى كئيب كالح لهذا العيش . فما الحياة فى نظر كثير من الفقهاء والعلماء إلا « لعب ولهو » وإلا عبث وهراء ومورد هلكة وضياع . . ألم يصفها الله سبحانه وتعالى بهذا الوصف ؟ وألم يقل جل شأنه : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور [٣] » وألم يقل الرسول الكريم فى تهوين شأنها « لو كانتَ الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء ؟ » وألم يقل داعيا إلى إهمالها وازدرائها « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ؟

ونعم . . هذه آيات الكتاب الكريم ، وتلك كلمات رسول الله الأمين لاشك فيها . ولا امتراء معها ، ولكن ماهكذا كانت ، ولا على هذا الوجه جاءت ، فقد عدل بها عن موضعها وجىء بها مجىء حق أريد به باطل..لقد عرض علماؤنا وفقهاؤنا نصف الحقيقة ، وأهملوا أو غفلوا عن نصفها الآخر فجاءت ممسوخة

(١) النحل : ١٤ (٢) الملك : (٣) الحديد : ٢٠

شوهاء . ليست حقًّا كاملا ، وليست باطلا صريحاً . . ولَباطلٌ يجىء صريحاً واضحا خير من حق شأنه أعرج .

إن الإسلام يعرف ماتنطوى عليه النفوس البشرية من حب الحياة حبًّا يملك عليها زمامها، ويعمى بصيرتها ، كما يعرف مافى الإنسان من غرائز متحكمة قاهرة تغريه بالاندفاع وراء شهواته ، والانطلاق فى كل سبيل لإروائها ، ولو ركب فى ذلك مطايا الجهل ، واستباح الدماء والأموال والأعراض . . . فليس فى الإنسان غريزة أقوى من غريزة حب الحياة . . وليس فى نفسه دافع أقوى من هذا الدافع العارم النهم ، وهيهات أن تنجح أية محاولة لإماتة هذه الغرائز والقضاء عليها !

ذلك ما يعرفه الإسلام فى الإنسان . . وهو الخبير بطوايا النفوس ، العليم بمواطن الضعف فيها . فإذا أراد لأدوائها دواء، والتمس لعللها شفاء، فإنما يجيئها من الطريق الذى يكسر من حدتها ، و يخفف من فورتها ، و يقيمها على النهج السوى القاصد . . وهو إذ يقابل هذا الجموح من النفس الإنسانية بتلك الدعوة القاسية الصارخة ، فإنما لتصل دعوته إلى الأسماع ، ولتنفذ إلى القلوب من خلال هذه العواصف المزمجرة الصاخبة فى نفوسنا التى تتصارخ فيها الشهوات المطلة عليها من كل جانب . . فكل ماجاء فى الكتاب الكريم وكل ماورد فى السنة الشريفة فى شأن الدنيا والدعوة إلى التخفف منها ، إنما هو حِمْيَة أريد بها حماية الناس من أن يغرقوا فى الشهوات ، و يتخموا من اللذاذات ، و إنما هى صرخة مدوية و إنذار راعد وراء هذا القطيع البشرى المندفع وراء شهواته ولذاته . . وما كانت النفوس أبداً فى حاجة إلى من يدعوها إلى الإقبال على الحياة والنهل

من مواردها ، فذلك هو مطلوبها ومتجه آمالها وأحلامها . . ومع هذا فقد نفذت الشريعة الإسلامية إلى أغوار النفوس البشرية ، واستشفت حقيقتها ، وعرفت أن بعض الناس قد يستقبل دعوة الإسلام إلى الحد من التكالب على الحياة بغير وعى ، ويأخذها على غير قصد فيعتزل الحياة نفسها ، ويتجرد منها جملة ، طلباً للسلامة ، وحرصا على النجاة من مواقعة اللذاذات والشهوات ، وأخذاً بالحيطة من أن تزل به القدم إلى مواطن الريب ... فذلك فى نظره أسلم عاقبة ، وأهدى سبيلا ... عرفت الشريعة الإسلامية أن هذا من طبيعة بعض الناس ، كما عرفت أن هذا السلوك البليد ، والموقف الراكد بعيد عن الصواب ، ناء عن الطريق القويم ... فجاءت تنعى على هذا الفريق المعتزل الزاهد مذهبه ، وتسفه رأيه وتدعوه إلى الدخول فى الحياة من بابها .

يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً هذا الفريق الخائف المنعزل « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق[١] » ويقول فى آية أخرى « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة[٢] » فالزينة التى جاءت فى الآيتين الكريمتين معناها التجمل والتزين والأخذ بأسباب الحياة الرخية ، ومعناها أيضاً تجاوز هذه الحياة المجدبة القاسية إلى مجال الحياة المعجبة الزاهية .. فليس فى هذا حرج ، ولا على المسلم أن يملأ يده من كل طيب حلال فى هذه الحياة ... لقد أبدع الخالق العظيم هذا الكون ، وبث فيه صوراً جميلة رائعة تنتظم كل ألوان الجمال ، وتشيع فى كل جانب من جوانب الحياة .. فى السماء والأرض وفى الحيوان والنبات والجماد .. وفى الإنسان الذى خلق لأجله كل هذا الجمال وسيق

---

(١) الأعراف : ٣٢ (٢) النحل : ٨

إليه كل هذا الحسن... قال تعالى « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب[١] » وقال : « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين[٢] » وقال « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج[٣] » وقال « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج[٤] » فلمن هذه البهجة ، ولمن هذا الجمال إذا لم تتفتح له القلوب وتتملاه العيون ؟

ياسبحان الله ! كيف نركب فى الحياة هذا المركب الخشن ، والله سبحانه وتعالى يدعونا إلى التى هى أحسن . . إلى الحياة البهجة الطيبة ... ولكن هكذا يأبى الناس إلا أن يظلموا أنفسهم ، ويركبوا رءوسهم ، وصدق الحكيم العليم « إن الإنسان لظلوم كفار[٥] » .

إن الذين يرون فى حياة التقشف والزهد ، والبعد عن الحياة ، والانطواء على النفس — إن الذين يرون ذلك مثلا للحياة الإنسانية الرفيعة ، ويعدون ذلك طريقاً مأموناً للنجاة من فتنة الدنيا ، وضماناً لسلامة الدين .. إن هؤلاء إما جاهلون بطبائع النفوس غافلون عن روح الشريعة ، وإما أصحاب هوى وكيد يريدون به إطفاء نور هذا الدين ، والقضاء على المتدينين به .

وكيف يكون للإنسان دين إذا لم تكن له دنيا ؟ وكيف يشعر الإنسان بتعاليم دينه إذا لم يدخل بها إلى ميدان الحياة العملى ، ويلقى بها الناس ويلقونه ، ويأخذ بها ويعطى ، ويكسب وينفق .. ويغرس ويجنى ؟ وكيف

---

(١) الصافات : ٦
(٢) الحجر : ١٦
(٣) الحج : ٥
(٤) ق : ٧
(٥) إبراهيم : ٣٤

ينتظم كيان المجتمع ، وتشتد دعائمه إذا لم يكن له فى هذه الدنيا دولة ؟ وله بين الدول حياة ومنزلة ؟

فى ظل هذا الفهم الفاقه للإسلام وتعاليمه قام المجتمع الإسلامى الأول قويًّا غالبًا ، يقبض الدنيا بقوته المادية والروحية جميعاً .. فما كان الدين ليقف بالمسلمين دون ابتناء القصور الشاهقة ، واقتناء الضياع العامرة ، وما كان الرسول ليعزل المسلمين عن الحياة وهم قائمون فى معتركها ، وما كان له ليغل أيديهم عن تناول طيباتها لينالها من هم دونهم من الناس ؟

يقول الرسول الكريم : « إن الله يحب العبد التقى الغنىّ الخفِىّ » ، فالغنى ليس عدوًّا لله ولا مجافياً للدين كما يصوره لنا بعض علمائنا فى كتب الفقه والسيرة .. و إنما الغنى محبوب من الله لأنه دعامة من دعامات القوى الإسلامية يستند إليه المجتمع و يعتز به .. والغنى المحبوب فى شريعة الإسلام هو الذى لم يَسُقْه الغنى إلى مسالك الشر والفساد ، فظل نقيًّا مسلماً ، يقضى بهذا الغنى حق النفس والأهل والوطن .. وحق الفقير والمسكين .. ثم لم يملأه هذا الغنى بطراً وتيهاً على الناس وتعالياً على العباد .. فعاش فى المسلمين غنيًّا متواضعًا لا يظهر غناه إلا فى مواطن الخير والإحسان ، وحين تهتف به هواتف الحاجة للأهل والوطن .

فما كان الغِنَى أبداً مكروهًا فى شريعة الإسلام ، ولا كان الأغنياء مبغضين عند الله ، و إنما شأن الغنى شأن كل نعمة لاتصادف أهلها ، ولا تنزل عند من يحفظها و يرعى حقها ، فطيبات الطعام نعمة ، ولكن قد ينال الإنسان منها فوق حاجته فيصاب بالتخمة والمرض ، والماء نعمة من أعظم النعم ، وقد يكون سببًا فى الموت غرقًا به .. وجوارح الإنسان نعم لا يعاش إلا بها ..

ولـكن قد يستخدمها استخداماً سيئاً فتكون سبباً فى هلاكه وضياع دينه ودنياه ..

كذلك يبغض الغنى أحياناً لما له من دوافع تدفع بعض النفوس الضعيفة إلى المهالك ، وتسوقها إلى مواقع الردى . أما المسلم المحصن بإسلامه ، القوى بدينه فأحبب بالغنى فى يده ، والثراء فى ظله ، يجمع به خير الدنيا والآخرة ، وتلك هى طريق المؤمنين ودعوتهم فى قوله تعالى : « ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار[1] » فمن اعتدل ميزانه ، وأمسك من الحياة بطرف ، ومن الآخرة بطرف ، فذلك هو الإنسان كما يريده الإسلام ، ولذا يقول جل شأنه فى المؤمنين الذين رضى عنهم ، ووفقهم لخير الدنيا والآخرة جميعاً : « فأتاهم الله ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة[2] » .

إن الذى تقفر يده من الدنيا هيهات أن يقبض بيده الأخرى على دين ، ولهذا بادر الإسلام بعلاج هذه الظاهرة التى ظهرت فى بعض المسلمين الذين حملوا أنفسهم على محمل صعب فى الحياة ، فساموها الحرمان ، وجنحوا بها إلى الرياضة العنيفة ، والزهد المتزمت ، وأخذوها بألوان القسوة والعسف .

فقد روى أن جماعة من أصحاب رسول الله ، قد استبد بهم داعى التقوى والورع فاعتصموا بالمسجد ، وقال أحدهم : سأقوم الليل ولا أنام أبداً ، وقال الثانى : سأصوم ولا أفطر ، وقال الثالث : إنى لا أتزوج النساء أبداً .. فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا ، قال وقد بان فى وجهه الغضب : إنى أعلمكم بالله وأخشاكم له ، وإنى أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج

---

(١) البقرة : ٢٠١ (٢) آل عمران : ١٤٨

النساء .. فمن رغب عن سنتى فليس منى » ، وسنة الرسول الكريم هى سنة الحياة الإنسانية التى لا تقوم إلا بها ، ولا تستند إلا عليها ، ولا يطيب للناس مقام إلا فى ظلها .

وروى أيضاً أن جماعة من المسلمين كانوا فى سفر ، وكان فيهم رجل قد زهد فى الحياة وأقبل على الصلاة والصوم حتى لقد شغله ذلك عن كل شىء .. فكان أصحابه يقومون بخدمته ورعاية مطالبه تكريماً له وتقديراً لتقواه ، وعاد الجماعة من السفر وتحدثوا إلى رسول الله فيما كان من أمر هذا الرجل وفى انقطاعه للعبادة ، فقال صلى الله عليه وسلم : «من كان يقوم بأمره ؟» فقالوا « كلنا يا رسول الله » فقال « كلكم خير منه » .

نعم ، كلهم خير منه ، و بلا استثناء . فما على مثل هذه الأشباح — و إن كانت نوراً خالصاً — تقوم الملة و يشتد عمود الدين ، ولا على هذا الجانب المقفر من الحياة ينتظم شأن أمة و يعتز شعب ، وتقوم دولة .

* * *

لقد حرم الإسلام الرهبنة لأنها تعزل الإنسان عن المجتمع ، وتقطع الصلة بينه و بين الناس ، فضلا عن أنها تقتل فى النفس أسباب الحياة ودوافع القوة ، والإسلام يمجد القوة و ينزلها منزل الإعظام والتقدير . . القوة الروحية ، والقوة المادية معاً . . فهما الجناحان اللذان يرتفع بهما الفرد كما ترتفع بهما الأمة . . و بغيرهما يصبح المرء جماداً لا يتحرك . . و بواحد منهما يكون مَسْخاً لا تستقيم له حياة بين الأحياء .

استمع إلى الحكيم العليم وهو يوجه المسلمين إلى مواطن السيادة والعزة ، و يدلهم على أسباب الغلب والظفر فى ظلال القوة المرهبة للعدو .. يقول تعالى :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل . . ترهبون به عدو الله وعدوكم[1] » ولا محصل للقوة إلا بالعمل الدائب ، والسعى المتصل فى كل جانب من جوانب الحياة جميعها ، وفى كل ميدان من ميادين الإنتاج فيها . فإذا انصرف المرء عن العمل فرغت يده من المال ، وركبه الفقر ، ونزل به الضعف ضيفا ثقيلاً لا يرحل أبداً . . وشتان بين المسلم الغنى القائم على نهج الإسلام ، و بين المسلم الفقير القائم على نهج الإسلام أيضا . . فأولهما قوة مادية وروحية معاً تبنى للإســلام ، وتعمل له ، وتنقل مبادئه وتعاليمه إلى عالم الواقع المنتفع به ، وثانيهما قوة روحية لا تقوم مقام القوة الأولى ولا تغنى غَناءها . . يقول الرسول الـكريم « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .. وفى كل خير . . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولـكن قل قدر الله ، وما شاء فعل ، فإنّ لو تفتح عمل الشيطان » .

هذا ميزان المؤمنين فى نظر الإسلام ، القوى فيهم خير من الضعيف ، و إن كانا معا فى ميزان الخير لأنهما مؤمنان .. والمؤمن القوى لا ينال هذه القوة ويحققها إلا بما اجتمع فى يده من أسباب الحياة ، وما استقر فى قلبه من نور الإيمان .. فهو خير عند الله من المؤمن الضعيف لأنه قوة عاملة فى دنيا المسلمين ، وهو أحب إلى الله لأنه بهذه القوة أقدر على نفع الناس ، وأقدر على غرس الخير فى كل موضع يراه أهلا لغرسه .

وفى الحديث الشريف ما يشير إلى أن القوة إنما سنادها الغِنى ، وأن القوة

(١) الأنفال : ٦٠

التى تستند إليه قوة عزيزة راسخة .. ولو كانت القوة تقوم وحدها ، أو تستغنى عن المال لما أتبعها الرسول بالغِنى ، ولقال إن الله يحب المؤمن القوى .. فالغِنَى فى ذاته قوة .. وهو فى شريعة الإسلام قوة بناءة فى مغارس الخير والإحسان .

وفى الحديث الشريف أيضا تحريض قوى على العمل ، ودعوة إلى شحذ العزائم واستنهاض الهمم « احرصْ على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز ... » فأى صوت أقوى وأصدق من هذا الصوت إلى العمل والجهاد ؟ ماذا أقول ؟ أيكون المسلم الحق فقيرا ؟ وكيف والإسلام يملأ النفوس قوة ، والقلوب شجاعة ؟ وكيف والإسلام يمد المسلم بأسباب الثقة بالله والرجاء فى توفيقه وعونه ... وكيف والإسلام يمجد الأغنياء بما يعطون ، ويُنزِل من شأن الفقراء بما يأخذون .. ففى شريعة الإسلام « اليد العليا خير من اليد السفلى » وفى شريعة الإسلام : السعى فى طلب الرزق عبادة ، والسعى على الأهل والولد عبادة . وفى شريعة الإسلام : الموت دون المال شهادة . وفى شريعة الإسلام أيضاً : كل عمل — وإن صغر شأنه وقل غناؤه — كريم محبوب ما دام قائما على الطريق القويم ، وما دام يحفظ على المرء ماء وجهه من أن يسأل ، وكرامة يده من أن تمتد . يقول الرسول الكريم : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتى بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

إنى لا أكاد أتصور وجود المسلم الفقير إذا أخذ المسلمون بمبدأ هذا الدين وعملوا بوحى شريعته . . نعم قد يعرض لبعض الناس ظروف وأحوال كالمرض والشيخوخة واليتم وغيرها ، فيصاب المرء فيها بالفقر والحاجة . . . ومع هذا فقد

نبه الإسلام إلى هذه الأزمات ودق لها أجراس الخطر قبل أن تداهم الذين تعرضوا لها ووقعوا تحت براثنها ، فى الحديث الشريف « اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

فهذه نظرات حكيمة فى مجال الدراسات الاجتماعية والاقتصادية الحديثة . . التى تدعو إلى التأمين والتوفير وغير ذلك من وسائل الاحتياط لطوارىء الحياة ومفاجآتها .

ثم إلى هذا كله . فقد عرف الإسلام أن بعض الناس قد يصمون آذانهم عن الاستماع إلى أجراس الخطر ، فلا يأخذون من شبابهم لهرمهم ، ولا من غناهم لفقرهم ، ولا من صحتهم لمرضهم ... فيصبحون وهم فى زمرة الفقراء والمساكين ... لم يترك الإسلام هؤلاء الفقراء ليد الهلاك والضياع ، ولم يدعهم لقسوة العوز والحاجة تدفع بهم إلى المزالق ، وتسوقهم إلى طرق الفساد والانحلال ، بل جعل لهم فيأ فى أيدى الأغنياء نصيباً مفروضاً فى الزكاة وبعض أنواع الكفارات ، ليحفظ عليهم حياتهم وليقى المجتمع شرهم ، ثم ليفسح أمامهم المجال للخلاص من براثن الفقر والحاجة إن نزعت ببعضهم همته إلى العمل والإنتاج ، وذلك داعية لأن يصبح المجتمع الإسلامى كله معافى من هذا المرض المهلك ... مرض الفقر ، الذى يقول فيه الامام على : « كاد الفقر يكون كفراً » ، ويقول : « لو صوّر لى الفقر رجلا لقتلته ! » بل ماذا أقول أيضاً ؟ أنه ليقع فى يقينى أن الإسلام قد افترض فى المجتمع الإسلامى الغنى ، وقدر له الثراء بما رسم له من مناهج حكيمة لتربية النفوس ، وإصلاح القلوب وتهذيب الغرائز ، مما يمكن للفرد فى الحياة ويثبت قدميه

فيها ... فالزكاة فى الإسلام أصل من أصوله ، وهى الركن الثالث من الأركان الخمسة التى يقوم عليها هذا الدين وهى : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ... وقد ورد ذكر الزكاة فى القرآن الكريم مقرونة بالصلاة فى اثنين وسبعين موضعاً ، والإسلام لا يحتفى بالزكاة هذا الاحتفاء ، ولا يجعلها بهذه المكانة من الدين إلا إذا كان لها شأنها فى المجتمع الإسلامى ، وإلا إذا كانت من العموم والشمول بحيث تتناول الغالبية العظمى من المسلمين . فهى شريعة المجتمع الغنى الذى له من المال والوفر ما يجعلها فريضة واجبة كما فى الصلاة ... ولو لم تكن على هذه الصفة فى المجتمع الإسلامى لما كان لها أثر يذكر ، ولما كانت ركناً أصيلا من أركان الدين .

إن الإسلام يكاد يحدد نسبة الفقراء فى المجتمع الإسلامى ، وهى نسبة ضئيلة جداً ، نستطيع أن نتبينها من الآية الكريمة التى تحدد مصارف الزكاة فى قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل[1] » .. فالفقراء والمساكين فرع من هذه الفروع السبعة التى تنصرف إليها حصيلة الزكاة .. ومعنى هذا أن سبع ما يحصل من الزكاة يكفى فى سد حاجة أصحاب الحاجات من الفقراء .. وهذا معناه أيضاً أن الذين يعيشون على سعة وغنى فى المجتمع الإسلامى من الكثرة بحيث أن سبع ما يجمع من زكاة أموالهم يسد حاجة

---

(١) التوبة : ٦٠

الفقراء فيهم .. وإذا علمنا أن الزكاة إنما هى جزء من أربعين جزءا من فائض الأموال التى يحول عليها حول كامل دون حاجة إليها .. إذا علمنا هذا أدركنا قيمة ما بأيدى المسلمين من مال، وعرفنا ما يجب أن يكون عليه المجتمع الإسلامى من غِنى ..

أحسب أن هذا الكلام قد لا يستقيم فى بعض العقول، وقد يذهب به بعض الناس مذاهب شتى — فيقول بعض: هذا تحميل لنصوص الكتاب مالا تحتمل، ويقول بعض آخر: هذا رأى لم يره أحد من السابقين من أعلام المفسرين، فكيف نقول به نحن الآن؟ وربما يقول بعض ثالث: ما لكتاب الله وهذه العمليات الحسابية التى كنا نعيبها على الفقهاء من قبل فى تشريح النصوص وعصر الكلمات.

وأنا لا أنظر إلى هذا على أنه تفسير لكتاب الله، ولا تحديد لمعنى الآية الكريمة، وإنما أريده قبساً من أقباسها، ووحياً من وحيها، وإلهاما من إلهاماتها .. أحسه بمشاعرى، وأجده فى وجدانى .. وإن كنت لا أجده فى قواميس اللغة ومباحث النحو.

وأيًّا كان الأمر فإن الإسلام — كما قلنا — دين القوة، لأنه دين الإنسانية كلها ولا تقوم الإنسانية فى هذه الحياة إلا إذا كانت مسلحة بجميع القوى التى تمكنها من قهر الطبيعة وتسخير ما فيها من قوى. وذلك يقتضى الدخول فى معترك الحياة، والأخذ من كل ثمر فيها وطيب منها، أما العزلة وأما الانسحاب، وأما الانطواء على النفس، وأما العيش على الكفاف والمسغبة .. فذلك كله سبيل العاجزين، وداعية الضعف والهوان والهلاك، ونعيذ الإسلام، وشريعة الإسلام من أن يثمر شيئاً من هذا الثمر النكد.

الفهم السقيم للإسلام ، هو الذى أشاع فى المسلمين هذه الروح الانهزامية الخبيثة ، وهو الذى عبأ شعورهم بهذا الزهد الزائف المريض ، وملأ نفوسهم بهذه القناعة الكاذبة فانتهت بهم أمورهم إلى هذه الحالة السيئة .

لقد قطعت الحياة أشواطاً بعيدة فى ميدان التقدم والحضارة ، وزخرت الدنيا بعجائب المخترعات الحديثة ، وتمكنت أمم من استكمال أسباب القوة والسلطان ، وكان لا بد للمجتمع الإسلامى من أن يخضع لسنة الحياة فى تنازع البقاء وأن ينزل على حكم « البقاء للأصلح » فيصبح فى قبضة الأمم القوية الغالبة ، ويقع فريسة فى فم الاستعمار .. وهكذا صار الحال بالمجتمع الإسلامى إلى هذا المصير المحتوم لمن يغالب طبيعة الحياة ، ولا يأخذ لنفسه ما يأخذ الناس منها من أسباب القوة والحصانة .. وهكذا قُهرت الأمم الإسلامية وتعرت من كل مظاهر القوة والحياة ، فرهقها الاستعمار بشتى ألوان العسف والقهر ، وإنه لولا قوة هذا الدين ولولا سلامة مبادئه لما بقى للإسلام ظل فى هذا الوجود .

بين الدنيا والدين . .

كنت أحسب أن ما ذهبت إليه فى تصوير الحركات الانسحابية التى سيق فيها المجتمع الإسلامى بسياط دعاة الهزيمة والعزلة عن الحياة من أصحاب المذاهب الدينية وأرباب الطرق — كنت أحسب أن هذا الذى ذهبت إليه إنما هو أثر من آثار الانفعالات الطارئة التى يقع المرء تحت تأثيرها حين تلقاه الحياة بغير ما يرضى .. وإننى حين نظرت إلى المجتمع الإسلامى ورأيت تخلفه عن الحياة ، وعجزه عن دفع يد الظلم المسلطة عليه ، ساءنى هذا وملأ نفسى سخطا وغما ، ورأيت أن لابد من انقلاب شامل فى كيان هذا المجتمع يتناول مناهج تفكيره ، ومطارح نظره فى الحياة ... ورأيت الدين وسلطانه المسلط على النفوس ، الآخذ بمسارب الفكر ومنابع الوجدان ، ووقع فى يقينى أنه إذا خلص الدين مما علق به من شوائب الزيف والزيغ ، ومن ركام الضلال والجهل ، ثم نزل من القلوب منزلا سليما كان ذلك إيذاناً ببعث جديد لمجد الإسلام وعز المسلمين .

وقع هذا من نفسى موقع اليقين فذهبت أعالج هذا الموضوع ، وكان من ذلك ما ذهبت إليه من استنكار هذه الدعوات الانسحابية ، وهذا الموقف السلبى من الحياة ، وأنكرت على الذين ينادون بهذه الدعوة موقفهم فى المجتمع الإسلامى ، وأنهم إما جهلة ضالون ، وإما كائدون مضللون يريدون بالإسلام وبأهله السوء ويتربصون به وبهم الدوائر .

وكنت أحسب فى هذا شيئاً من القسوة على هذه المذاهب ، وشيئاً من

الاندفاع إلى المادية ربما يختل به ميزان الحياة فى الأفراد وفى المجتمع ، وحدثتنى نفسى أن أرجع إلى شىء من التلطف والقصد فى هذا الرأى . .

ولقد أزمعت هذا فعلا ، و بدأت أروض نفسى عليه لولا أن طارقا جديدا دخل على نفسى دخولا مفاجئاً فصرفها صرفا قاسيا عن هذا الاتجاه ، وأرادها على أن تتجه وجهتها الأولى فى قوة ، وفى انطلاق ، دون أن تحسب حسابا لهذا الخاطر المريض.

كان هذا الطارق أثراً من آثار تلك الرحلة البعيدة التى أتيح لى فيها أن أزور أمماً و بلاداً لا تزال بعيدة عن مجال الحياة العامة التى تعيش فيها الأمم المتحضرة . . وفى هذه المواطن يمكن المرء أن يرى الحقائق واضحة غير محجبة ، وأن يتعرف إلى النفس البشرية وما يجرى فى محيطها عن قرب دون أن يخدعه عنها ما يتجمل به المتحضرون من مداراة ومخاتلة . .

لقد زرت ليبريا — على ساحل المحيط الأطلسى ، فى الطرف الغربى من أفريقية — وهى دولة مستقلة فى العرف الدولى ، وأهلها زنوج فيهم كل خصائص الجنس الزنجى من ملامح ظاهرة ومستترة ، تعيش كثرتهم فى الأحراش والأدغال ، ويعيش قليل منهم فى مدن يغلب فيها العنصر الأجنبى الأبيض .

هذه الدولة المستقلة ، موفورة الخير قد منحها الله تربة خصبة وأجرى فيها أنهاراً غزيرة ، ففاضت أرضها بالكثير الغامر من أنواع الأشجار والنبات حتى لقد سد وجه الأرض بالخضرة التى لا تتغير على مر الأيام .

ومع هذا الخير الكثير ، ومع هذا الاستقلال المعترف به ، فقد فعل الفقر

فعله فى هذا الشعب فاستطاعت أمريكا أن تمسكه (بدولارها) وأن تفرض عليه نفوذها وسلطانها ، وترسم له الحدود التى تريده أن يعيش فيها .

وليس يعنينا هذا اللون من الاستغلال بقدر ما تعنينا النتائج النفسية والروحية المترتبة عليه ، فقد امتلأت البلاد بالإرساليات التبشيرية الوافدة من أمريكا وأوروبا تجوب البلاد ، وتسعى بين الأدغال والأحراش ومن ورائها القوة المستمدة من النفوذ الأمريكى .. تقيم المعابد ، وتسوق إليها الناس بشتى الوسائل والمغريات .

وليس يعنينا أيضاً هذا اللون من الدعايات الدينية ، وإنما يعنينا موقف الإسلام فى هذا المعترك .. فالمسلمون مضيق عليهم فى الرزق ، محرومون من من التعليم ، ومن الوظائف العامة ، ثم هم مطاردون فى ميدان الأعمال الحرة فلا يسمح لهم إلا بالقليل التافه منها .

نعم إن أهل البلاد جميعاً مغلوبون على أمرهم .. قد استبد بهم الفتور والكسل ، فرضوا بما يلقى إليهم من فضلات الحياة ، وقنعوا بما تجود به الأرض الطيبة دون أن يعملوا على سد حاجاتهم من خيرها الكثير .. فلا يكاد المرء يصدق أن هذه البلاد الخصبة تستورد من أمريكا أنواع الخضر ، والبيض ، واللحم ، والخبز ! .

ولكن أين الدين وأين آثاره ؟ أين الدين الذى يوقظ المشاعر وينبه الأحاسيس، ويدفع الناس إلى الإصلاح والتعمير ؟ .

لا نريد أن نوجه هذا السؤال إلى غير المسلمين هناك .. فإن إرساليات التبشير إنما تطوى رسالتها على تضييع كل معانى الإنسانية فى هذه البلاد

ليظل أهلها ملتصقين بالأرض ، لا يعملون عملا من شأنه أن يدنيهم من المدنية، أو يلفتهم إلى ما عندهم من خير كثير لا يعرفون كيف السبيل إليه .. فنحن نريد أن نسأل ، ماذا فعل الإسلام فى نفوس المسلمين فى تلك الجهات ؟ .

فى الحق أن الإسلام هناك قد جعل المسلمين شيئا وأنه قد ارتفع بهم كثيرا عن مستوى غيرهم ممن لم يدخلوا فى الإسلام وذلك على الرغم مما يواجهون من عنت و إرهاق ، وعلى الرغم من أن الإسلام قد جاءهم فى صورة مشوهة مضطربة ، لأن الذين بلغوا رسالة الإسلام فى تلك الجهات النائية كانوا — مع نياتهم الخالصة وحماسهم الحق — ممن غذوا بالدراسات الفقهية التى أشرنا إليها فى مباحثنا السابقة ، والتى قلنا إنها لا تستطيع أن تملأ قلب المسلم بالإيمان ، ولا تستطيع أيضاً أن تبصره بموقفه فى الحياة على الوجه الصحيح الذى رسمه الدين .

والذى رأيته فى لبريا ، رأيته فى صورة أكمل وأوضح فى السنغال الفرنسى على الطرف الغربى من أفريقيا ، وعلى الساحل الأطلسى ، فهناك أمة تخضع للنفوذ الفرنسى يبلغ تعدادها نحو عشرين مليونا ، وأن نسبة المسلمين تتجاوز خمساً وتسعين فى المائة من مجموع السكان هناك ، ومع هذا فإن صوت الإسلام خافت لا يكاد يحس ، و إن امتلأت به القلوب وعمرت به النفوس ، و إن كان للدين على النفوس فى هؤلاء الأقوام سلطان قاهر يعطونه عن رضا كل قلوبهم وعقولهم ، ويقدمون له فى سخاء ما يملكون من مال ونفس وولد .

ولكن تسلط المستعمر قد غلب الناس على أمرهم ، وقهر فى قلوبهم كل عاطفة كريمة لدينهم ، فليس للمسلمين هناك مساجد تقف إلى جوار المعابد القائمة للديانات الأخرى ، وليس للمسلمين فى مجال الإسلام نشاط يذكر .. وليس

لهم مدارس لتعليم الدين واللغة ، وفى المسلمين ظمأ شديد إلى تعلم اللغة العربية ، ليحفظوا كتاب الله وسُنة رسوله . . حتى إن بعض من يعرف المبادئ الأولية للغة العربية قد حفظ القرآن الكريم كله حفظاً كاملا دون أن يعرف للكلمات التى يحفظها مدلولا ، ولكنه حب الدين والتفانى فى الإخلاص له .

ليس فى هذه البلاد التى يبلغ تعدادها هذه الملايين ، والتى يمثل المسلمون فيها الغالبية العظمى — ليس فى البلاد غير مدرستين أشبه بكتابين لتعليم مبادىء اللغة العربية والدين ، أنشأهما جماعة من الشبان المثقفين بداكار بين عواصف التهديد والوعيد ، وأذكر أن الأستاذ الباقورى حين زار هاتين المدرستين ، واستمع إلى صغار التلاميذ والتلميذات ينطقون بالكلمات العربية فى لهجة صحيحة . أذكر أن فرحة الدنيا كلها قد ملأت نفسه ، وأن هذه الفرحة قد أغرقت عينيه بدموع باردة ، فقضى يومه كله فى نشوة عجيبة لم أعرفها فيه من قبل ، ولم أعرف سببها إلا حين رأيته يتحدث مع أحد علماء « دا كار » ويغريه بإنشاء مدرسة ثالثة ، ويبذل له من المال كل ما معه ، ويقول له : إن الإسلام بغير اللغة العربية أشبه بالروح الهائمة لا تعرف لها جسما تسكن إليه . . . إن اللغة العربية هى الرباط الذى يربطكم بالعالم الإسلامى ، ويقوى ما بينكم وبينه من مشاعر الأخوة الدينية . . . إن اللغة العربية هى التى تجعل لكم كيانا ، وسلطانا ، يبعث فيكم الأمل فى مستقبل كريم .

هذان مثلان لانهزام المسلمين فى ليبريا ، والسنغال . وقد تبع هذا الانهزام فى الحياة المادية انهزام أمَرّ وأقسى فى الحياة العقلية والروحية ، فقد كان الفقر المادى الذى مكن له الاستعمار فى تلك البلاد قوة باطشة تذل لها الرقاب

وتخضع لها الأعناق . وكان نصيب المسلمين بصفة خاصة أكبر نصيب ليفتنوا عن دينهم ، وليكونوا مثلا لغيرهم ممن يراد دعوته إلى غير الإسلام من الوثنيين .

ولقد رأينا فى تلك البلاد رجلا كبيراً مسئولا من أبنائها قد دفعته هذه الظروف أن يظهر فى الناس أنه على غير دين الإسلام حتى يتاح له أن يلى المنصب الخطير الذى لوح له به ، وقد فعلها الرجل ، وظفر بالمنصب ولا يزال يحدث من يثق فيهم من المسلمين أنه على الإسلام الذى يعمر قلبه ويملك مشاعره .

لا أحب أن ألوم أحداً فى هذا ، فذلك هو دستور الحياة ، وشريعة البشر منذ كانوا : الغلب للقوة ، والحياة للأقوياء ، والبقاء للأصلح .

وقد يكون مع القوة طيش وظلم واستبداد ، وكان من الخير أن تقتصد فى طيشها وتخفف من ظلمها واستبدادها .

وقد يكون مع الضعف ذلة واستخذاء ، واطمئنان إلى هذا الضعف ورضى به ، وكان من الخير أن يتأذى الضعفاء من الذل ، وأن يثوروا على الهوان ، وأن يتطلعوا إلى مطالع العزة والقوة . ولكن الأمر على كل حال فى وضعه الذى لابد له أن يكون . القوة ، والقوة وحدها هى صاحبة الكلمة وإليها مقطع الرأى . سواء رضي الضعفاء أم سخطوا ، وسواء استقام ذلك مع العدل والحق أم لم يستقم ، فتلك هى الحياة كما يعيش عليها الناس .

قد يقول قائل : وما ذنب الإسلام فى هذا كله إذا كانت ظروف هذه الشعوب وأحوالها لم تهيىء لها القوة ، ولم تمكن لها فى الأرض ، لقد جاءها الإسلام وهى على حالها تلك من الضعف والفتور ، ومن الإدبار عن الحياة والرضا بما تفضل به الأرض عليهم من ثمر ؟

وأنا واضح فى أنى إنما أقصد بالإسلام هنا ، ما بلغ القوم من تعاليم منتسبة إلى الإسلام داخلة عليهم باسمه ، فهى عندهم ، وعند من يعرفهم هى الإسلام فى صميمه وجوهره .

والمبادئ الدينية التى وصلت إلى هؤلاء القوم عن الإسلام ، لم تصلهم إلا فى القرون المتأخرة ، أى بعد أن انتهى العصر الأول الذى تلقى فيه المسلمون مبادئ الإسلام صحيحة ، واضحة المدلول بينة القصد فيما يتصل بالدنيا والآخرة جميعاً ... أما هؤلاء فقد جاءهم الإسلام — كما قلنا — عن طريق أصحاب المذاهب والطرق ، وهؤلاء لهم فى الدين فهم قائم على نظر محدود . غايته سلخ المسلم عن الحياة حتى يكون خالصاً للآخرة ، عاملا لها ، بعيداً عن أن ينفع أو يضر ... وقد تكون هذه الدعوى عن حسن نية لا يراد بها إلا خدمة الدين ، أو عن غاية يراد بها إخضاع الجماعات لسلطان الداعى ، وجعلها دمى متحركة فى يديه .

وأيًّا كان الأمر ، فقد دخل الإسلام على هؤلاء الناس فى تلك الصورة الهزيلة المريضة ، فلم يبعث فى نفوسهم حرارة ، ولم يرفع لأعينهم مثلا صالحاً للحياة القوية العزيزة . ولو أنه قدر لهؤلاء الناس أن يلتقوا بدعاة يفهمون الناس ، و يعرفون رسالة الإنسانية العظيمة ، لاستطاعوا أن يهزموا كل قوى الشر المحيطة بهم ، وأن يقدموا كل ما لديهم من مال ونفس لتحقيق الغاية التى يرسمها الدين و يدعوهم إليها .

لقد ازددت يقيناً بعد مشاهداتى فى هذه الرحلة أن الدين لا يقوم إلا فى ظل الدنيا ، وأن الأمة التى لا دنيا لها لا يمكن أن يعيش له دين ، ما دام

الناس هم الناس، وما دامت الحياة هى الحياة ، يخضع فيها الضعيف لإرادة القوى ، وينزل فيها المستضعفون على حكم الأقوياء .

وإذن فلا بد من العمل فى إخلاص وإصرار على التخلص من الفقر ، ومن الرواسب النفسية التى صرفتنا عن مجالات السعى الجاهد فى الحياة ، والتى نفذت إلى مشاعرنا ، وعقولنا حتى بلغت من نفوسنا هذا المبلغ باسم الدين وباسم مبادئه التى شوهها الجهل وزيفها سوء القصد .

المعاول الهادمة

أكاد أجزم بأن مؤامرات كبرى محكمة التدبير من أعداء الإسلام قد لعبت دوراً خطيراً فى تجسيم هذا الشعور الانهزامى فى ميدان الحياة ، والإلحاح به على شعور المسلمين فى صورة أحاديث وسير تروى عن الرسول وتنتسب إلى الإسلام ، وفى صورة آراء ونظريات تنادى فى الناس بالعزلة والانسحاب وبأن من أراد النجاة لنفسه والسلامة لدينه فليترك الدنيا وليعتزل الناس والحياة وليقض عمره فقيراً معدماً ، متخففاً من كل متاع فى هذه الدنيا ، فذلك هو الدين الخالص ، وتلك هى سبيل المؤمنين ، وألقى فى روع المسلمين أن الزمان قد فسد ، وأن الناس قد ركبهم الجهل ، واستحوذ عليهم الشيطان وأننا فى آخر الزمان الذى تواترت الأخبار بفساده وفتنة الناس فيه ، وأنه لا نجاة إلا بأن يكون الإنسان « حِلْسَ بيته[1] » . . إنه الطوفان . . فمن ركب سفينة العزلة فقد نجا ، ومن ركب رأسه وظل متجهاً إلى الحياة ممسكا بها فهو من الهالكين .

هكذا صورت الدنيا للمسلمين . . الطوفان مقبل . . فليطلبوا لأنفسهم النجاة والسلامة ، وليختفوا من هذا العالم قبل أن تخطفهم المردة والشياطين . . ومن المؤلم حقًّا أنه قد استجاب كثيرون لهذه الدعوة الماكرة ، التى سرعان ما أصبح لها كيان مستقل بارز فى المجتمع . . فكان لها دعاة وقادة ، ولهؤلاء الدعاة والقادة حواريون وأتباع . . ثم صار أمرها إلى مذاهب معروفة فى

---

(١) أى قعيد بيته .

الإسلام ، و إلى طوائف مختلفة من المتصوفة ومن نهج منهجهم من أصحاب المذاهب والطرق .

* * *

كان للخلاف بين على ومعاوية ، وما انتهى إليه هذا الخلاف من انتصار معاوية واستخلاص الخلافة الإسلامية لنفسه ولأهله بالقوة — كان لهذا الخلاف أثره فى نفوس المسلمين جميعاً .. الذين اشتركوا فيه ، والذين تجنبوا مواطنه ، والذين كانوا يرقبون نتائجه . فقد هزمت المبادىء والمثل ، وتغلبت الدنيا على الدين وخلصت الخلافة لمعاوية ولأبنائه من بعده . ففعل ذلك فعله فى النفوس ، وأثار فيها جوًّا مضطرباً عاصفاً جنح ببعض الناس إلى الخروج على المسلمين جميعاً ، واتخاذهم سبيلا خاصًّا فى الحياة ، كما فعل الخوارج وفرقهم التى توالدت وتكاثرت فيما بعد .. ووقف بعض الناس فى حيرة مذهلة لا يدرون إلى أية وجهة يتجهون .. ومال معظم الناس إلى دولة معاوية ، وانحاز القليل منهم إلى حظيرة على .

ومضت الأيام والأحداث فى العصر الأموى بهذا الموقف تزيده اتساعاً وتشعباً فلقد أفاء الله على المسلمين خيراً كثيراً ، ومكن لهم فى الأرض ، وامتلأت أيديهم بالمال وسيقت إليهم ثمرات الضياع ، وحسان الإماء والقيان من بنات فارس والروم ... وكان ذلك فتنة . استقبلها بعضهم بحكمة وقصد فعاش فى ظلها ممسكا بطرفى الدنيا والدين جميعاً ... واستقبلها بعضهم فى شِرَّةٍ ونهم ، فغرق فى لذاتها وغفل عن آخرته غفلة لا صحو معها ، وانصرف عنها بعضهم انصرافاً كاملا ... خوفاً من الفتنة وفراراً من الإغراء .. ثم جاء العصر العباسى ... وقد جاءت معه حضارة الفرس ومعارف اليونان والرومان والهند .

فلعب ذلك بعقول الناس ، وأثر فى معتقداتهم ... وظهر فى المجتمع كثير من الملاحدة والزنادقة وأصحاب الخلاعة والمجون ... يقابلهم من الطرف الآخر أصحاب الزهد والتصوف ، شأن كل حركة تقع فى الحياة ، لا بد أن يقابلها ضدها من الجانب الآخر .

* * *

هذه إشارة لا بد منها لكى نعرف مسارب هذه النزعة الانعزالية ، وكيف أنها لم تكن وليدة دعوة إسلامية ، وإنما كانت نتاج مواقف وأحداث ، وآثار صدمات نفسية من هذه المواقف والأحداث ، ثم كانت صنيعة تدبير محكم من أعداء هذا الدين ، للكيد له والنيل منه .

والذى لا شك فيه أن كثيراً من أبناء الأمم غير العربية فى فارس والروم قد دخلوا الإسلام وفى نفوسهم كراهية وحقد على هذا الدين الذى قضى على دولتهم ، وذهب بسلطانهم ، ومكن للعرب منهم . وهذه روح لم يستطع قهرها إلا أولئك الذين دخلوا فى الإسلام بقلوبهم . وأعطوه كل مشاعرهم ، وارتفعوا بالعقيدة عن منازع العصبية . أما غير هؤلاء فقد دخلوا الإسلام وهم يضمرون له ولأهله عداوة لا تذهب إلا بذهاب الإسلام ودولة الإسلام . وهؤلاء الذين حقدوا على الإسلام من اليهود ومن أبناء الفرس والروم هم الذين حملوا لواء الإلحاد ، وأشاعوا الزندقة التى فاض بها العصر العباسى ، والتى شوهت معالم الحضارة التى عرف بها هذا العصر .

ثم هم الذين أذاعوا فى جمهور المسلمين هذه الدعوة الانعزالية ، وبشروا بها وعملوا على تغذيتها بالأحاديث المكذوبة ، والقصص المفترى ، حتى تقفر

دنيا المسلمين ، وحتى يصاب المجتمع الإسلامى بالضعف والهزال ، ثم الضياع والهلاك .

ولقد كان من بين هؤلاء المنافقين الذين دخلوا الإسلام — على خوف من دولته ، وعلى نية الهدم والتدمير — كان من بين هؤلاء علماء وفقهاء ورواة حديث وأصحاب قصص ... فألفوا كثيراً من الكتب وأضافوها إلى غيرهم من العلماء البارزين ، كما أخرجوا كتباً كثيرة لا تحمل اسم مؤلفيها كجماعة إخوان الصفاء الذين أذاعوا مثل هذه الكتب وملأوها بكثير من الخلط ، وحشوها بالأحاديث المكذوبة والأخبار المصطنعة .. ولعله من الخير أن نشير هنا إلى هذه الجماعة وما أذاعت من آراء خلطت فيها بين الصحيح والفاسد والطيب والخبيث ، وجمعت فيها بين المنخول والمدخول ، ليطمئن الناس إليها وليثقوا فى باطلها ، كما وثقوا فى صحيحها ، وذلك من محكم الكيد ، وإحكام التدبير . فلقد تناثرت فى رسائل « إخوان الصفا » — وهى إحدى وخمسون رسالة — كثير من الآراء الصائبة والتوجيهات السديدة ، ولكنهم دسوا فى ثنايا ذلك ما أرادوا أن يدسوه من سموم ، فشاع فى رسائلهم هذا الترغيب فى الزهد ونفض الأيدى من الدنيا ، بضرب الأمثال مرة وسوق القصص مرة أخرى ، وفى صراحة حيناً ، وفى مواربة وتعمية أحياناً ، وينسبون هذا إلى رسول الله ، ويخلطون فيه الصحيح بالزيف ، والحق بالباطل ، ليأخذ الناس به جميعاً ، أو يتركوه جميعاً وفى كلا الحالين اضطراب النفوس ، و بلبلة الأفكار وفساد العقيدة ، وحسب الإنسان ضياعاً فى الحياة أن يقف فيها مضطرباً حائراً لا يدرى إلى أى طريق يتجه ! ! ولعله من الخير أيضاً أن نشير هنا إلى بعض ما جاء فى الرسالة التاسعة من رسائل هؤلاء الإخوان فى مجال التضليل ،

والكيد للإسلام وفى معرض الكذب والافتراء على الرسول الكريم قالوا :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طوبى لإخوانى » قيل يارسول الله : « أو لسنا إخوانك قال : أنتم أصحابى ، وأولئك إخوانى . قيل من هم إخوانك يا رسول الله ؟ قال : قوم يكونون فى آخر الزمان .. يؤمنون بى ولم يرونى ، يصدقوننى ويتبعوننى .. هم إخوانى ، وأنتم أصحابى . طوبى لهم ! ! » .

وهذا كلام طيب يصح أن ينسب إلى رسول الله . . ولكن انظر كيف يمضى القول فى التعليق عليه بكلام منسوب إلى الرسول أيضاً . فيقولون بعد ذلك مباشرة فى الحديث عن هؤلاء الإخوان . . « وإليهم أشار (أى الرسول الكريم) بقوله فى وصيته لأسامة بن زيد : عليك بطريق الجنة ، وإياك أن تختلج بدونها . . قال يا رسول الله ما أيسر ما يقطع به الطريق ؟ قال الظمأ فى الهواجر ، وكسر النفوس عن لذة الدنيا . . يا أسامة ، عليك بالصوم فانه يقرب إلى الله . . إنه ليس شىء أحب إلى الله من ريح فم الصائم وترك الطعام والشراب لله تعالى » (وهذا كلام جميل أيضاً) . ثم يمضى الحديث . « فإنك إن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل ، فإنك تدرك بذلك أشرف المنازل فى الآخرة ، وتحل مع النبيين عليهم السلام وتفرح الأنبياء والملائكة بقدوم روحك عليهم ، ويصلى عليك أهل الجنان » (وهذا كلام لا بأس به ، وإن بدا عليه الضعف والصنعة التى تنزه عنها بيان الرسول وبلاغته) ويستمر الحديث « إياك يا أسامة ودعاء كل كبد جائع . قد أذابوا اللحوم ، وأحرقوا الجلود فى الرياح والسمائم ، وأظمأوا الأكباد حتى غشيت أبصارهم . فإن الله إذا نظر إليهم باهى كرام الملائكة بهم . . بهم يصرف الله الزلازل والفتن حيث كانوا (كذا) ثم بكى رسول الله شوقا إلى رؤيتهم حتى اشتد

بكاؤه وعلا نحيبه وهاب الناس أن يتكلموا حتى ظنوا أنه أمر حدث من السماء (كذا) ثم قال : ويح لهذه الأمة ما يلقى منهم من أطاع الله فيهم . . كيف يقتلونهم ويكذبونهم من أجل أنهم أطاعوا الله (لعلهم يقصدون بذلك دعاة الشيعة ويرشحونهم لملء هذا المكان . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله والناس يومئذ على الإسلام قال : نعم . قال فيم يقتلون من أطاع الله قال يا عمر: ترك الناس الطريق ، وركبوا فره[1] الدواب ، ولبسوا الحرير والديباج ، واللين من الثياب ، وأكلوا الطيبات ، وشربوا بارد الشراب ، وجلسوا على أرائكهم متكئين ، وخدمهم أبناء فارس والروم (إن الذى يملأ نفوسهم غيظا هو هذا الذى صار إليه أمر العرب من القوة والغنى) . يتزين المرء منهم زينة المرأة لزوجها ، ويتبرج النساء بزى كسرى بن هرمز والملوك الجبابرة ويسمنون أبدانهم ، ويتباهون بالكساء واللباس فإذا نظروا إلى أولياء الله ، وعليهم العيا[2] قد ذبحوا أنفسهم من شدة العطش كيف ؟ والله يقول : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة[3] » . وإن تكلم منها متكلم كذب وأبعد وطرد وقيل قرين شيطان ، ورأس ضلالة ، يحرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق .. فأولوا كتاب الله بغير تأويله ، واستذلوا أولياء الله وأخافوهم . يا أسامة إن أقرب الناس إلى الله يوم القيامة من طال حزنه وجوعه وعطشه فى الدنيا . هم الأخيار الأبرار الذين إن شهدوا لم يعرفوا ، وإن غابوا لم يفتقدوا .. يعرفهم أهل السماء ، ويخفون على أهل الأرض ، تشتاق إليهم البقاع (هذا تلويح للناس باستقبال هؤلاء الدعاة) وتحف بهم الملائكة ، ينعم الناس بالدنيا ،

---

(١) جمع فاره : وهو القوى . (٢) العياء الضمور ، والجهد .
(٣) البقرة : ١٩٥

وينعمون بالجوع والعطش .. لبس الناس لين الثياب ، ولبسوا الخشن .. افترش الناس الوطاء ، وافترشوا هم الجباه والركب .. ضحك الناس وبكوا هم يا أسامة ، ألا لهم الشرف الأعلى يوم القيامة ، وددت أنى رأيتهم وبقاع الأرض لهم رحيبة والجبار عنهم راض ، والراغب إلى الله من رغب فيما رغبوا ، والخاسر من خالفهم (كذا .. فإلى أى دعوة يدعون) .. تبكى الأرض إذا فقدتهم ، ويسخط الجبار على بلد ليس فيه منهم أحد .. يا أسامة : إذا رأيت أحدهم فى قرية (كذا) ، (وأين أسامة وأين القرى والحديث فيما يسوقونه يتحدث عن الأزمان المقبلة) ، فاعلم أنه أمان لأهلها لا يعذب الله قوما فيهم منهم أحد (كذا .. وكان الأولى بذلك الكفار من قوم الرسول وهو فيهم) .. اتخذهم يا أسامة لنفسك أصحابا عساك تنجو معهم ، وإياك أن تسلك غير طريقهم فتزل قدمك فتهوى فى النار .. يا أسامة ترك القوم الحلال من الطعام والشراب ، طلبوا الفضل فى الآخرة أكلوا العلق ، ولبسوا الخلق[١] تراهم شعثا غبرا ، إذا رآهم الناس ظنوا أن بهم داء وما بهم داء ، وظنوا أنهم خولطوا وما خولطوا .. يا أسامة ، عقلوا حين ذهبت عقول الناس ، طوبى لهم وحسن مآب .. ألا لهم الشرف الأعظم ! ! »

هذه نبذة من بعض ما جاء فى هذه الرسائل من خلط ، فماذا تجد فى نفسك من هذا الكلام الذى ينسب إلى رسول الله ألا تجد أن هذا الكلام ينطوى على نوايا خبيثة غايتها تجريد الناس من دوافع الحياة ، وتحويلهم دمى متحركة تأتمر بأمر الداعى أو الدعاة الذين يمثلون هذا الدور ويخرجون على

---

(١) البالى من الثياب .

الناس فى هذه الصورة التى أحكم وصفها .. يجب إذن لـكى يفرغ الناس لهم ، و يصبحوا أدوات لهذه الدعوة أن يتخلصوا من الحياة وأثقالها ، وما يصلهم بها من أهل وولد ومال ، ليـكونوا أخف ظهراً ، وأسرع استجابة ممن لهم دنيا يعيشون فيها وأسرة يسكنون إليها .

ولقد أثمرت هذه الدعوات الخبيثة ثمراتها النـكدة ، فغرت مشاعر المسلمين ووقع الـكثير منهم تحت تأثيرها ، وقدر لـكثير من أصحاب هذه الدعوات المضللة أن ينجحوا فى مجال التضليل ، وأن يقيموا دولا على أنقاض أشياعهم الذين آمنوا لهم وخدعوا بهم »

المعاول الهادمة أيضا

تمكنت الدعوة الانسحابية فى المجتمع الإسلامى ، وأخذ سرابها الخداع يلوح لكثير من المسلمين ويغريهم بالانطلاق إليه والحياة فى جانبه .. ولم يقف تأثيرها عند العامة والدهماء بل جاوزهم إلى بعض العلماء وأصحاب الفلسفات الذين استطاعوا أن يصوروها فيحسنوا تصويرها ، وأن يقيموا لها دعائم تستند إليها . وهذا مما قوى هذه الدعوة وضاعف من خطرها .

لقد كان المعرى - مثلا - أكبر داعية لهذه الدعوة ، وصاحب قدم راسخة فيها . . فهو شاعر ، وكاتب ، وفيلسوف ، صبغ فلسفته بهذا اللون الأسود الحالك ، ولون به أدبه من شعر ونثر .. ولم يقف عند هذا الحد بل كان عمليا ومنطقيا مع نفسه ، ففرض على نفسه حياة خاصة هى تطبيق عملى لكل آرائه التى صورها فى شعره وفى نثره ، لقد التزم فى حياته رياضة مرهقة قاسية فحرم على نفسه ما أحل الله من طيبات ، فجنبها أكل ذى روح ومايخرج من ذى روح ، واتخذ له زيا خشنا جافيا ، ومسكنا مقفرا مظلما ، وقطع العمر على الكفاف من العيش ، لا ينال منه إلا ما يسد الرمق ويمسك الحياة .

ولو أن المعرى وقف عند هذا الذى فرضه على نفسه لهان خطبه ، ولكانت جناية خاصة به لا تتجاوزه إلى المجتمع الذى عاش فيه ، ولا إلى الأجيال المقبلة من بعده . . ولكنه كان شاعراً أديبا فملأ شعره ورسائله بهذا الزهد المريض ، وصور للناس الحياة فى صورة مخيفة مفزعة تثير فى النفس دوافع الهرب والفرار منها .

فما أكثر ما يعرض المتنبى فى شعره من صور التشاؤم بالحياة ، وأنها

سراب خادع ، وزيف باطل لا أمان لها ، ولا اطمئنان إليها ، فلم الطلب ولم العناء . يقول مثلا :

وأهون من عيش الغنى عيش فاقة ومن زى ملك رائق زى راهب

ويقول :

رأيت الحتف طوف كل أفق وجاب الأرض من مصر وكفر[1]
وكيف يشمر الإنسان وفرا ولم يخرج من الدنيا بوفر
لاذنب للدنيا فكيف نلومها واللوم يلحقنى وأهل نحاسى[2]
عنب ، وخمر فى الإناء وشارب فمن الملوم أعاصر أم حاسى[3]

ولم يكن المعرى وحده فى هذا الميدان بل كان من ورائه كثيرون من العلماء وأصحاب المذاهب يسوقون الناس سوقا إلى أودية التيه والعدم ، و يباعدون بينهم و بين الحياة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .. وقد استطاعت هذه الدعوة أن تبلغ من نفوس العامة مبلغا خطيرا ، وأن تملأ خيالهم الساذج بصور مبهمة مختلطة لما وراء المادة . . فزحفت على دنياهم روحانية أشبه بالأشباح المتراقصة تلوح لهم بالوصول إلى مراتب « الكشف » والتعرض لأنوار السماء .. وما هذا كله إلا سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاء لم يجده شيئا . . خذ لذلك مثلا فرق المتصوفة ، وهى فرق كثيرة لاحصر لها .. وطريقها جميعا قائم فى ظاهره على الزهد فى الدنيا ، وأخذ النفس بنظام خاص فى العبادة وفى أسلوب الحياة وقد تبع ذلك إعداد مناهج خاصة وأساليب معينة لنظام العبادة وأوقاتها ، وتأليف مجموعات كبيرة من الأدعية والأوراد واتباع نهج خاص فى أدائها على هيئة جماعات تقوم وتقعد ، وتميل وتعتدل ، مرددة هذه الألفاظ فى صور

(١) يريد بالمصر المدينة ، وبالكفر القرية الصغيرة .
(٢) النحاس : أصل الشىء . (٣) الحاسى : الشارب .

غريبة من الأنغام التى لا يفهم لها معنى ، ولا تقع من نفس مرددها موقعا يبعث على عمل نافع أو سلوك محمود .

لقد جذبتْ هذه الطريقة كثيراً من الناس ، واستهوتهم بما يلوح فى ظاهرها من بلوغ منازل فى عالم الحقيقة ، والوصول إلى مراتب الكشف ، فما أكثر ما يتردد فى المحيط الصوفى من عبارات « المريد » ، « والشيخ » ، « والقطب » ، « والطريق » ، « والحضرة » ، « والمقام » وما أكثر ما تجرى بينهم الشطحات التى تفوح منها روائح الخلط والإلغاز فى عبارات مضطربة أشبه بسجع الكهان ، توهم السامع أنها مشحونة بالأسرار مليئة بالنبوءات ، وأن وراء كل كلمة معانى لا يعرفها إلا من دخل مع القوم مدخلهم ، وسلك طريقتهم ، فتلك الأسرار إنما هى مقصورة على أبناء الطريق ! !

لا نستطيع أن ننكر أن فى جماعة المتصوفة أفراداً لهم هذا الاستعداد الطيب للإشراق النفسى ، وليس ذلك فى جماعة المتصوفة وحدها بل هو فى كل مجتمع .. إذ لا تكاد تخلو طائفة من الطوائف أو مجتمع من المجتمعات من ذوى النفوس الكريمة الصافية التى تنجذب إلى الخير وتعمل له ، فذلك عند بعض الناس فطرة تستجيب للعمل الصالح ، وعند بعضهم تربية وتعليم تغرسه وتنميه .

والتصوف فى ذاته — إذا استقامت طريقته — لون من ألوان التربية الفردية ، يعالجها المرء ، ويستقبلها حسب استعداده وينتفع بها على قدر طاقته .

أما أن يكون التصوف مدرسة عامة لتخريج الأخيار الطيبين من الناس فذلك مالا نستطيع القول به ، ولا يقوم عليه شاهد من واقع الحياة ، بل ربما كان الأمر على عكس هذا .. فإن طريق التصوف محفوف بالمزالق ، ملىء

بالمعميات ، كثير الدروب والمتاهات ، وقد دخل فيه كثير من العلماء فضلّوا ، وانتهى بهم الأمر إلى الإلحاد والكفر .. أما العامة — وهم أكثر أبناء هذا الطريق — فما أكثر هلكاهم فى هذا المجال ، إنهم هنا أشبه بالحشائش المتسلقة التى تستند إلى قطع من الخشب .. تعلو ، وتعلو ، ولكنها لا تعتمد على جذور ، ولا تعتز بفروع ، ولا ترتبط إلى أصل تغتذى منه .. وهم لهذا فى معرض الضياع والهلكة لأول صدمة من صدمات الحياة .

إن الإسلام قد حارب الكهانة ، وانكر سجعها ، لما فيها من تعمية وتضليل ، .. إنها رموز يستطيع منشئها أن يفسرها التفسير الذى يجىء عليه الواقع المنتظر . وفى ذلك ما فيه من تضليل وخداع .

قال حَمَلُ بن النابغة الهُذَلِىّ : يارسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك يطل[1] . فقال عليه الصلاة والسلام : إنما هذا من إخوان الكهان ، من أجل سجعه الذى سجع . وأنكر عليه هذا اللون من الحديث .

وفى الصوفية عبارات كثيرة غامضة تدور على ألسنة الشيوخ ورؤساء الطريق ، يرددها أتباعهم والمتعلقون بأذيالهم .. وهى عبارات تنحو مناحى مختلفة من القول المريب الذى يدخل على نفس المسلم كثيراً من الحيرة والاضطراب ، فمن العبارات التى تردد فى أجواء الصوفية أن يقول قائلهم : سبحانى ، ما أعظم شأنى . أو كما يقول الحلاج « ما فى الجبة إلا الله » ومثل هذه العبارات — إن كان لقائليها وجه من العذر للحال التى كانت تلبسهم وقت القول من نشوة التواجد — يتلقاها الأتباع ويرددونها فى حال يقظتهم

---

(١) يهدر ، فلا غرم فى قتل الجنين ، والحكم ليس كذلك .

وكامل وعيهم فتملأ خيالهم المريض بكثير من صور الأوهام التى تدفع بهم إلى مزالق الكفر .

والإسلام أبرز خصائصه — كما قلنا من قبل — أنه دين لا يعترف بالرياسات الدينية ولا يرضى بأن يكون بين الناس وخالقهم حوائل من أصحاب الوساطات ، فليس بين الله و بين المسلم إلا قلبه وعقله ، يديرهما ، فى ملكوته فيراه عظيما ، حكيما ، عليما ، فيخشع له ويؤدى حق المعبود على العبد حسب ما رسمته الشريعة ، وبينه الرسول الأمين . ثم إن مجتمعاً كمجتمع الصوفية تجرى فى تفكيره مسائل عويصة من المباحث التى تدور حول الإلهيات كوحدة الوجود وما يتصل بها من بحوث حول الذات والصفات ، قد أعيت العقول ، وحيرت الألباب وأوقعت العلماء فى كثير من المزالق : فكيف يؤمن على العامة — وهم أكثر أتباع المتصوفة — من أن يضلوا و يغرقوا فى لجج هذه الاتجاهات التى يساقون إليها .

إن طريق التصوف لا يمكن أن يكون فى شريعة الإسلام مذهبا عاما يدخله الناس من أى باب . . ذلك لأنه قائم على الزهد فى الحياة ، واعتزال الناس . والإسلام ليس دين زهادة وعزلة ، وإنما هو دين عمل و إنتاج ، ودين اجتماع وارتباط بالحياة والأحياء جميعا — ثم إن التصوف الصحيح لون من ألوان الفلسفة ، وصورة من صورها ، إذ هو وليد فهم خاص للحياة ، وثمرة تفكير طويل فيها ، لا يمكن أن يعيش فيه إلا من بلغ به تفكيره إلى هذه النتيجة فارتضاها مذهبا وأطمأن إليها طريقا ، وراض نفسه على هذا اللون من الحياة ، ليحقق ما انتهى إليه تفكيره ونظره إلى هذه الحياة ... هكذا نعرف أصحاب الزهد والتصوف ، كالحسن البصرى ، وأبو العتاهية ، والمعرّى . .

فهؤلاء وأمثالهم أصحاب نظر وفلسفة قبل أن يكونوا أصحاب مذهب فى الحياة .

يمكن إذن أن يكون التصوف مذهب أفراد متناثرين هنا وهناك، استجابة لبعض النزعات النفسية والاتجاهات الفكرية .. أما أن يكون التصوف مذهبا له دعاة وله مبشرون يذيعون فى الناس ماينسبون له من فضائل يمنونهم بها و يدنونهم منها ، و يفتحون لهم الباب بهذه المغريات — فذلك خطر يتهدد الناس فى عقولهم و يفسد عليهم دينهم ودنياهم معا ، خاصة طائفة العوام وهم — كما قلنا — أكثر الناس استجابة لهذه الدعوة جريا وراء سرابها الخداع .

لا أظن عاقلاً رشيداً من المتصوفة ينكر هذا ، وكيف وحسبه أن يلقى بنظره إلى زمر المتجمعين حوله من الأتباع . إنه سيجد كثيراً منهم ممن خولط فى عقله ، والتاث فى تفكيره ، وعاش فى الناس مسخا غريبا بين إشفاق المشفقين وعبث العابثين ، فإن تكن هذه الصورة التى تعيش فى محيط الصوفية من المجانين قد دخلت بحالها تلك من اختلاط العقل والتياث الفكر فذلك مما يؤذى الدعوة و يشينها ، و يصمها بالتفاهة التى من شأنها أن تجذب إليها هذه الأمساخ من الناس .

و إن يكن هؤلاء الأتباع قد أصيبوا بما هم فيه حين دخلوا فى محيط الصوفية وانتموا إليها وعاشوا فيها فما أكبر جنايتها على العقول ، وما أعظم جُرمها على الناس .

مرة أخرى نقول إنه من الخطر الماحق أن يقوم التصوف على أسس دعوة عامة ، تأخذ مظاهر « النقابات » التى تضم أصحاب الأعمال والحرف ، و يكون للجماعة فيها وضع خاص فى المجتمع ، فذلك مع أنه مظهر من مظاهر الفرقة الدينية فى جماعة المسلمين ، إلقاء بكثير ممن ليس لهم استعداد خاص لهذا اللون من الرياضة ، إلى الضياع والتهلكة .

قذائف مدمرة

إلى جانب هذه الدعوة الانسحابية من الحياة ، وإلى جانب هذه المواقف السلبية التى ساقنا إليها دعاة الزهد والتصوف من رجال الدين وأصحاب الطرق . . إلى جانب هذا قامت دعوة أخرى ليست أقل خطرا فى عملية الهدم والتدمير فى كيان المجتمع الإسلامى من تلك الدعوة التى أرادت المسلمين على الانسحاب من الحياة ، وزينت لهم الرضا بالقليل التافه منها .. فهذه الدعوى الانسحابية على ما فيها من خطر ، وعلى ما تركت من آثار سيئة فى المجتمع الإسلامى ، هذه الدعوة ليست مطلقة السلطان فى كيان النفس الانسحابية ، بل إنها لتصطدم دائما بقوى متأصلة فى النفس ، تختلف قوتها باختلاف الاستعداد الشخصى لكل إنسان .. هذه القوى هى حب الحياة ، وحب ما فيها من لذائذ ومتع .. وحب الحياة ولذاتها أصل أصيل فى الإنسان تدفعه إليه دوافع كثيرة ، وتغريه به مغريات متجددة لا تنفد ، فالإنسان مفطور على حب الحياة ، مدفوع إلى السعى وراء لذاتها وشهواتها .. يقول سبحانه وتعالى « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث .. ذلك متاع الحياة الدنيا[1] » .. فإلى هذا المتاع تتجه النفوس ، وإلى موارده تتلمظ الشفاه .

وإذا كانت هذه الدعوة الانسحابية قد استهوت بعض العقول ، وجذبت

---

(١) آل عمران : ١٤

إليها بعض النفوس ، واستطاعت أن تنتزع بعض الناس انتزاعا من الحياة ومتعها ، إلا أنها مع ذلك مهددة دائماً بغارات عنيفة قوية تزحف عليها من مكامن النفس التى تراود الإنسان عن اللذات والشهوات ، وتفتح له مجالات الإغراء من كل جانب .

أما الدعوة التى نراها أشد خطرا وأعمل عملا فى هدم المجتمع الإسلامى فهى دعوة طاغية جارفة ، ليس لسلطانها حد ، ولا وراء أمرها معقب .. وهى دعوة ذات شعبتين تتجه كل منهما فى اتجاه مضاد لصاحبتها ، وتشد كل منهما الإنسان شدا إلى جهتها .. فالأولى تدعوه إلى اليأس من رحمة الله ، وتصور له أبواب التوبة والمغفرة موصدة من كل ناحية ، والنار محيطة به من كل جانب إذا اقترف إثما أو واقع معصية ، والثانية تكاد تحرض الإنسان تحريضا على اقتراف الآثام وارتكاب الذنوب بما تفتح له من سبل المغفرة والرحمة وبما تيسر له من وسائل الدخول إليها بأيسر الأعمال ..

والناس بين هذين الأمرين فى حيرة مذهلة لا يدرون إلى أى اتجاه يتجهون ، ففى أقوال كثير من العلماء ، وفى مذاهب الفقهاء ما يدخل اليأس القاتل على النفوس إذ لا مغفرة لمذنب ولا رحمة لعاص ، وفى أقوال كثير من العلماء ، وفى مذاهب بعض الفقهاء ما يحيل هذا اليأس القاتل إلى رجاء مغرق فى رضاء الله ورضوانه .. الثواب بلا حساب ، والمغفرة بلا تقدير .. فأين يذهب المسلم وسط هذا الظلام وإلى أية جهة يتجه وبين يديه رجاء عريض ومن خلفه يأس لا أمل معه . لقد تفرقت بالمسلمين المذاهب ، واختلفت بهم السبل . . فذهب بعضهم إلى جانب اليأس الذى لا تنفذ إليه شعاعة من رجاء ، فعاش منطوياً على نفسه معتزلا الحياة ، وانحاز فريق إلى جانب الرجاء

المضلل فعاش فى ظله يرتع فى مراتع السوء غير مقدر لحساب الله حسابا ، ولا معد ليوم الجزاء عملا . . وكيف وهواتف هذا الرجاء تهتف به :

تكثر ما استطعت من الذنوب   فإنك واجد رباً غفورا
ستلقى إن قدمت عليه عفوا   وتبصر سيدا ملكا كبيرا

و بين هؤلاء اليائسين بغير حق ، وهؤلاء الطامعين بغير عمل، يقف فريق ثالث ينظر إلى هؤلاء نظرة و إلى هؤلاء نظرة ، و يعيش على هذا اليأس حيناً وعلى هذا الرجاء حيناً ، وهو فى كلا الحالين مشتت الفكر ، مزعزع الرأى ، تملأ الحيرة والاضطراب جوانحه .

وماذا يثمر هذا التناقض العجيب غير هذه الثمرات المرة ، إنها الحصاد الطبيعى لهذا الغرس المشئوم ، ولست أدرى كيف تحتمل الدراسات الإسلامية هذا التناقض ، وكيف يجتمع فى الكتاب الواحد منها الشىء وضده معا . إن ذلك لما يثير العجب و يبعث على الشك فى أقوال هؤلاء العلماء .. ويلقى كثيرا من ظلال الظنون على مباحثهم القائمة على أصول الحق ، إذ كان هذا الخلط بين الحق والباطل والطيب والخبيث وفى ذلك ما فيه من فتنة و بلاء .

* * *

قد يكون فى المسلمين من لايبالى بدينه ، ولا يقوم على شعيرة من شعائره. يواقع الكبائر فى غير مبالاة ، و يرتكب الفواحش فى غير تأثم .. ولو حوسب هؤلاء الحساب العسير لكان لهم من عملهم ما يبرره... ولكن الذى نعجب له غاية العجب وننكره أشد الإنكار هو أن يكون المسلم مسلما .. يؤدى الصلاة والصوم والزكاة .. ويتوجه مع المسلمين إلى الله الواحد الأحد .. ولا يحمل بين جنبيه إلا قلبا مؤمنا مسلما .. ومع هذا فإنه

لأقل هفوة ، ولأصغر صغيرة — وما أكثر هفوات الناس ، وما أكثر صغائرهم — يرمى بالفكر والخروج من الإسلام جملة .. وقد يحكم عليه بهذا وهو واقف بين يدى الله يؤدى الصلاة فلا يحسن أداءها ، أو يخل بركن من أركانها ، أو شرط من شروطها — عن سهو أو جهل — فيقال له ممن يملكون القول من الفقهاء ، وأدعياء الفقه — ، أنت الآن ملعون بألسنة الملائكة التى لا تقبل هذه الصلاة ولا تكتبها لك فى سجل أعمالك بل ستحيلها لعنات تنصب على رأسك !

وقد يترك المسلم الصلاة لوقت أو وقتين أو يوم أو أيام — لعذر أو لغير عذر — فيذهب ليستفتى فيقال له من أصحاب الفتيا .. يقول فلان كذا ، ويقول فلان كذا ، .. وينتهى الرأى بأنه كافر وجب قتله وحل دمه ..

وما أكثر ما يضعف الإنسان أمام شهواته ، وتغلبه نفسه الأمارة بالسوء فيرتكب كبيرة .. كأن يشرب خمراً مثلا، ثم يرجع هذا الشارب على نفسه باللائمة ، ويطلب إلى الله المغفرة ويبدو له أن يتعرف إلى حاله فيذهب إلى علماء الدين يطلب الرأى والنصيحة فيقولون له : إن شارب الخمر على نجاسة أربعين يوماً لا تقبل منه صلاة ولا صيام .

ماذا تنتظر من إنسان مريض يذهب ليطلب الدواء فيقال له: إن مرضك قاتل لا يرجى له شفاء . وإلى أى طريق يتجه هذا الذى شرب الخمر ، وهو مقبل على نجاسة لأربعين يوماً ، أتراه يفعل خيراً فى تلك الأيام وهى أيام لا يقبل منه فيها خير ، أتراه يصلى ويصوم وهو لا يرجو لصلاته أو لصيامه قبولا إلى أى وجه يتجه .

ولى ألف وجه قد عرفت طريقه ولكن بلا قلب ، إلى أين أذهب

إلى أين يذهب ؟ .. لا ، سيجد له ألف مذهب ومذهب ! إنه بلا دين ، وله وجوه كثيرة فى الأرض ، سيعرف كيف يتجه إليها ، و بين يديه شيطان ، وفى كيانه نفس .. إنهما يدلانه على الطريق ويمهدان له السبيل .. سيعود إلى « الحان » إن كان له فى الخمر لذة ، أو إلى القمار إن كان له فيه هوى ، سيعب من الآثام عبًّا .. إلى أن تنقضى هذه المدة ، و بعدها يأتى الله بالفرج .. أو ليكن الطوفان ، وهو الطوفان فعلا ، فهو لا يعمل حساباً لهذه المنكرات الجديدة إذ أنها عنده فى حساب الأيام التى لا يقبل فيها عمل .. وقد لا تنقضي هذه الأيام إلا وقد تمكن فيه الداء ، وذهب بالبقية الباقية من دينه ومروءته !

ماذا أيها الملائكة الأطهار ؟ ألم تستمعوا إلى قوله تعالى « وخلق الإنسان ضعيفاً[1] » وماعناصر هذا الضعف ومامظاهره ، إنه الضعف أمام رغبات النفس ودفعاتها . و إن مرد قوة الإنسان وضعفه دائماً هو إلى ما فيه من مناعة ضد هذا العدو المهاجم ، وفى الحديث الشريف « ليس الشديد بالصرعة .. إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » فهذا الضعف الإنسانى يعرفه الإسلام فى الناس و يعترف به ، . وكل ما يستطيع أن يقدم من عون للإنسان فى هذا المجال هو أن يدعم قوى الخير عنده ، و يسلحه بما يستطيع من أسلحة ليدفع هذا العدو الذى لا يفتر أبداً ، إنه لا تستطيع قوة ما أن تقضى قضاء تاماً على دوافع النفس وشهواتها ، وأن هذه الدوافع وتلك الشهوات لتجد فى أقوى الأقوياء مناطق ضعف تنفذ منها .. يعرف الإسلام هذا الضعف البشرى و يعالجه بحكمة و يلقى هفوات الإنسان وسقطاته بسماحة وعفو ومغفرة حتى يفسح له المجال لإصلاح ما أفسد ورتق ما فتق ، وفى القرآن الكريم عشرات من

---

(١) النساء : ٢٨

الآيات التى تبسط للخاطئين جناح القبول والعفو . وتفتح لهم أبواب الرحمة والمغفرة يقول تعالى « و إنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى[١] » ويقول «إن الله يحب التوابين و يحب المتطهرين[٢]» .. وفى الحديث الشريف « إنكم لو لم تذنبوا لخلق الله قوماً يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم » . . ذلك هو منهج الإسلام فى رياضة المذنبين العصاة .. يفسح لهم طريق التوبة ، ويفتح لهم أبواب المغفرة إذا صحت عزيمتهم وخلصت نياتهم . ثم ماذا لو انسدت أبواب السماء ، فلا مغفرة لعاص ، ولا قبول لتائب ، ولا إقالة لعاثر ، أليس ذلك تعطيلا لصفات الرحمة والعفو ، والمغفرة مما يتصف به الغفور الرحيم .

أليس ذلك سداً لباب الإصلاح ، وحكماً بالإعدام على كل من واقع معصية ، ما ذا يكون موقف المذنب إذا قيل له إنك لن تنتقل من جماعة العصاة أبداً ، و إنك لن تقبل فى زمرة الأخيار ولو ذهبت نفسك حسرات ! هيهات لقد فاتك القطار !

أرأيت إلى الذين يقعون تحت طائلة القانون البشرى فيحكم عليهم بالسجن ثم يخرجون إلى الحياة وفى أيديهم صحيفة « سوابق » مدموغة بهذا الشبح الذى يسد فى وجوههم كل باب ، و يجعلهم فى الناس أشبه بالجربى . أرأيت كيف ينتهى الحال بهؤلاء الخارجين من ظلام السجون إلى ظلم الحياة ، إنهم يعلمون مقدماً ألا مكان لهم فى مجال الشرف والعمل الصالح ، سواء أخلصت نياتهم وطابت سرائرهم ، أم أقاموا على طريق الأثم والشر .. إنهم أشرار فى رأى الناس على أى حال فليختصروا الطريق ولينفذوا حكم الحياة فيهم ! ! أشرار أشرار وليكن ما يكون ، فليس بعد الكفر معصية .

---

(١) طه : ٨٢ (٢) البقرة : ٢٢٢

وانظر لو أقيل هؤلاء من عثراتهم — لأول مرة على الأقل — ثم قيل لهم إنكم أخطأتم حقًا ، ولكنكم بشر والبشر يخطئون ، وليس العيب فى أن يخطىء الإنسان ، ولكن العيب فى أن يخطىء ثم لا يكون له من هذا الخطأ وازع يزعه ، وواعظ يعظه ، وتجربة ينتفع بها فلا يقع فيما وقع فيه . ماذا لو فتح لهم باب الرجاء والأمل فأصابوا هناك ما يحيى مواتهم ، ويرد اعتبارهم .

لقد تنبهت الأمم الواعية إلى هذا الأمر ، ونظرت إلى المجرمين نظرة الطبيب إلى المريض ، فلم تضرب بينهم وبين الناس الحجب ، ولم تسد فى وجوههم الطريق . . واستطاعت بهذا أن تكسب كثيرا من هؤلاء المجرمين ، وأن تردهم إلى عالم الفضيلة والنور ، وأن تجعل منهم قوة بناءة فى المجتمع .

والتربية الإلهية للبشر تربية عالية بصيرة ترتفع إلى منازل لا تطاولها التربية البشرية ، وهى فى الإسلام رحمة راحمة ، تنال الطائعين والعاصين على السواء فما حرم الإسلام إنسانا من رحمة الله ، ولا سد فى وجهه بابا من أبوابها ...

استمع إلى الآية الكريمة « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا . . إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم واسلموا له [1] » ... استمع إلى هذه الآية الكريمة ثم رددها مرة ومرة ومرة فماذا تجد فيها وماذا يطوف بقلبك من طيباتها .

ماذا أقول ؟ إنى أكاد أحسد العصاة وتكاد تنازعنى نفسى أن أقف وقفتهم تلك فى موضع الندامة والحسرة واللهفة لأستمع معهم إلى هذا النداء الندى بلطائف الرحمة والحنو من رب العالمين « ياعبادى » ، فهذا النداء ريان بهواتف الرحمة والحنو على هؤلاء العصاة الذين أسرفوا على أنفسهم ، والإسراف على أنفسهم مراد به معنيان ومتوجه به إلى طائفتين من الناس : أولئك الذين

(١) الزمر : ٥٣ ، ٥٤

أسرفوا على أنفسهم فى إثقالها بالمعاصى ، وإرهاقها بالآثام ، وإيرادها موارد الضلال ، وذلك هو الظلم الذى تشير إليه آيات كثيرة من الكتاب الكريم وتحدث به عن الذين ظلموا أنفسهم ، يقول جل شأنه على لسان موسى ، « قال : رب إنى ظلمت نفسى فأغفر لى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم[1] » والطائفة الثانية أولئك الذين اشتدوا على أنفسهم باللائمة وأخذوها بأعنف ألوان الندم والتقريع ، دون أن يفتحوا عليها بصيصاً من الأطماع فى رحمة الله والرجاء فى غفرانه ، فهذا إسراف على النفس ، وقسوة قاسية . . والمعنيان تحتملهما الآية معا ، وتزاوج بينهما فى الدلالة وتجعل أحدهما مكملا للآخر فى أداء المعنى المراد ، وهذا مما اختص به القرآن الكريم وتفردت به بلاغته .

فهذا النداء « ياعبادى » متوجه إلى هذين النوعين من المسرفين جميعا : الذين أسرفوا فى السفه والضلال ، وأمعنوا فى الفسق والفجور .. ثم الذين أسرفوا على أنفسهم باللوم والتقريع على ما اقترفوا من إثم . هؤلاء ، وهؤلاء جميعا مدعون إلى ساحة الرحمن يفضل عليهم من فواضل رحمته وغفرانه بهذا النداء الرحيم « ياعبادى » .

وانظر كيف يفعل هذا النداء فى هذين الفريقين من المسرفين ، وكيف يقع من نفوسهم جميعا .. أما هذا الفريق الضال ، المعربد ، فسيجد هذا النداء كثيراً من أفراده قد أتخم وبشم من الإثم ، ولا يجد له منصرفا عن هذا المرعى فإذا ما هتف به هذا النداء الرحيم « ياعبادى » وجد فى نفسه أنه ما زال إنسانا له فى الناس مكانه الذى خيل إليه أنه قد زال عنه بهذا الإغراق فى الإثم ، ووجد الفرصة سانحة للحاق بهذا المكان الكريم الذى كاد أن يحرمه فى الحياة ، فينطلق إليه مهطعا .

(١) القصص : ١٦ .

أما أولئك الذين امتلأت نفوسهم ندما وأسفا على ما فرطوا فى جنب الله فإن هذا النداء سيفتح لهم أبواب الأمل والرجاء فيندفعون إليها اندفاعاً .

بهذه التربية العالية يربى الله عباده ، وبهذه المغفرة والرحمة يمسك بالعصاة والطائعين من أن يسقطوا فى الهاوية و يسبحوا مع المردة والشياطين .

إنها أرض قفر قد أصابها الجذب فأنبتت الحسك والشوك ، وجمعت إليها أخبث الحيات والثعابين . وليس من الحكمة ، ولا من الخير للإنسانية أن تترك هذه الأرض هملا . فلو لم تجر يد الإصلاح على الجديب من الأرض لأصبحت الأرض كلها يبابا بلقعا ..

ولكن هكذا يريد بعض أصحاب المذاهب والفتيا ، يحولون بين الناس و بين أن يمدوا أيديهم إلى الله ، وأن ينالوا من رحمته ، فكل من فعل إثما خرج على الله ، وعد من الكافرين وحرم الله عليه الجنة .

يا سبحان الله ..

يقول الرسول الكريم : « أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بى شيئا دخل الجنة قلت : وإن زنا وإن سرق قال : وإن زنا وإن سرق »

وروى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعى نفر من قومى ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام . . أبشروا وبشروا من وراءكم ، إنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقا دخل الجنة ، قال فخرجنا من عنده نبشر الناس فلقينا عمر رضى الله عنه فرجع بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : إذن يتكلوا فسكت ..

وماذا يكون من الرسول الكريم غير السكوت فى هذه الحال إنه يفتح

على المسلمين أبواب اليسر والرحمة .. « من شهد أن لا إله إلا الله صادقاً دخل الجنة » ولكن هذا اليسر قد يغرى النفوس الضعيفة بالاستخفاف بأوامر الله ونواهيه ، فتتكل على هذا الوعد الصادق من الرسول الكريم وتقف عند اللفظ بالشهادة ولا تنبعه بالعمل بما تقتضيه هذه الشهادة ، والرسول يرى هذا الحق فلا يكتمه ، وعمر يرى ماوراء هذا الحق وما يتركه فى الناس من أثر فلا يسكت ، بل يكشف للرسول عما حاك فى صدره فلا يسمع من الرسول جواباً وفى صمت الرسول تستبين الحقيقة كاملة وتكشف عن وجهيها معا .. فلعمر أن يطمئن فذلك هو الحق ، ولعمر أن يقلق فذلك هو شأن الناس إن لم يبيتوا على جناح خوف ورجاء ومع هذا وذاك ستظل قولة الرسول الكريم عنوان الإسلام القائم على السماحة واليسر .

ومعاذ الرأى والدين فى ابن الخطاب أن يشك فى صدق الرسول ، ولكنه يشك فى الناس ، ويتوقع غفلة الغالبية العظمى منهم عن المعنى الكامل لهذا الحديث فيأخذون بعضه و يدعون بعضه ، و إلا فإن من يشهد أن لا إله إلا الله صادقا أى عن فهم و يقين و إخلاص لا يمكن أن يغضب الله أو أن يقيم على منكر ، فإن مثل هذا الإيمان الصادق يصل صاحبه دائما بالله و يملأ قلبه خشية من جلاله .

لاأريد بهذا أن أدافع عن العصاة والمذنبين ، ولا أن أبسط لهم فى مجال العذر . وإنما الذى أريده هو أن يكون لهم حق التوبة إن تابوا ، وحق المغفرة إن ندموا وألا تهدر إنسانيتهم لأول زلة ، أو يضيع إيمانهم لأول عثرة .

أريد أن يحاسب المذنبون والعصاة لابهذا الحساب الأخرق الذى مثله أدعياء الدين ، وإنما بهذا الحساب الرحيم العادل الذى وضعت موازينه الآية

الكريمة « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون[١] ».

بهذا الميزان القائم على الرحمة والمغفرة للآثمين والمذنبين يمكن أن تستصلح النفوس الخبيثة ، وتعالج القلوب المريضة . . أما أن يؤخذ الناس بحساب هذه الموازين المختلة فذلك تأباه طبيعة الإسلام وسماحة مبادئه .

نقول هذا ونؤكد أن مسلما عرف فقه الإسلام ، وفقه شريعته لا يمكن أن يدخل على المسلمين بهذه الفتاوى المريضة ، ويقف لهم بالمرصاد أمام أية نسمة من أنسام الرحمة والرضوان .

وبينما تسد دعوة التيئيس من رحمة الله وعفوه كل باب على العصاة والمذنبين ، نجد دعوة الإطماع المضلل تفتح الباب على مصراعيه ، وتعطى الناس صكوك الغفران بغير حساب وبغير عمل .. وهذه دعوة خبيثة ما كره ، تغذى خيال الناس بالأوهام ، وتقف بهم على بحر عريض من السراب .. فلا يواجهون واقع الحياة ، ولا يعملون عمل الأحياء .. وإنما هم أشباح لا خير فيهم ولا أمل يرجى منهم .

إن رحمه الله تسع كل مذنب وعاص .. لا حدود لهذه الرحمة ، ولا نهاية لها .. ولكن ليس معنى هذا أن تجرى أعمال الناس بلا ضابط يفرق بين الحسن منها والقبيح ، ويجعل لكل منها مكانه من الثواب والعقاب تعالت حكمة الله وعدله عن ذلك علوا كبيرا .. إن لكل شيء حسابه عند الله .. « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره[٢] » فللخير عند الله ثوابه ، وللشر حسابه . . « ولا يظلم ربك أحداً[٣] » تلك هي

---

(١) آل عمران : ١٣٥ . (٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ . (٣) الكهف : ٤٩ .

مقدرات الحكمة ، وتلك هى مقررات العدل ، وذلك هو الذى يقوم عليه صلاح هذا الكون ونظامه ، إثابة المحسن وعقاب المسىء ، ليكون فى الناس محسنون ، تظهر عليهم فضائل الإحسان ، وليكون فيهم مسيئون تنطبع عليهم آثار الإساءة و بذلك تتراجح الكفتان ، ويعتدل ميزان الحياة ، وفرق بين أن يعاقب المذنب فى الحدود التى تناسب ذنبه و بين أن يترك هملا أو يقابل منه هذا العمل المسىء بغير استنكار .. إن ذلك معناه تحول الحياة كلها إلى عوالم الشر والظلام .

سيقول أصحاب الفلسفات الفارغة إن هذا حجر وتضيق على قدرة الله ، و إنقاص من رحمته التى وسعت كل شىء ، ونقول إن حكمة الله وعدله يقفان جنباً إلى جنب مع قدرته ورحمته . . و إذا كان فهمنا يقصر عن الموازين التى توزن بها هذه الرحمة وتنزل على قدرها ، فإننا نستيقن تماماً مواقع تلك الرحمة ونعرف أين مطالعها . . فهى أبداً مع الإحسان حيث كان . . يقول سبحانه وتعالى : « إن رحمة الله قريب من المحسنين[1] » و يقول : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان[2] » .

وفى ظل هذا الفهم أحب أن أفهم الآية الكريمة « نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين[3] » فرحمة الله لا حدود لها ، تصيب بحكمة الله وعدله من يشاء من عباده ، وتصرف عمن يشاء . . ولكنها تقع أبداً دائماً حيث يكون الإحسان « ولا نضيع أجر المحسنين » .

ولكن انظر كيف تختل موازين العدل وتضطرب حين توزن أعمال الناس على هذا التقدير الذى نراه فى مباحث هؤلاء الذين يكيلون الرحمة

---

(١) الأعراف : ٥٦ (٢) الرحمن : ٦٠ (٣) يوسف : ٥٦

والمغفرة بمكيال أخرق لا يعرفه الناس فى حياتهم العامة ، ولا تقره شريعة السماء ، وأغلب الظن أن معظم هذه المباحث وما تستند إليه من أقوال ينسب إلى السلف إنما جاءت عن طريق أولئك الذين عرفنا كراهيتهم للإسلام وتربصهم به و بأهله .. أولئك الذين دخلوا الإسلام على خوف من دولة المسلمين أو على نية الكيد للإسلام فإنهم بهذه المباحث يصرفون المسلمين عن دينهم الحق و يلوونهم عن العمل الجاد فى ظله إلى حياة لاهية لاعبة ، و إلى مقارفة الآثام فى غير تحرج ولا تأثم ، ما دام يقع فى وهم الناس أن باب الرحمة واسع ، والدخول إليه سهل ميسر .

فما هى إلا كلمات معدودات يرددها الإنسان فإذا الرحمة والمغفرة تفيض عليه ، و إذا الخطايا والذنوب تذوب وتمحى ، و يصبح المرء و يمسى وهو مبرأ من كل ذنب ، ولو ارتكب ما ارتكب من إثم ومعصية .

ولهذا شاع بين المسلمين ترديد كثير من الأدعية والأوراد ترديداً ملحًّا يكاد يقطع به بعض الناس أيامهم ولياليهم دون أن يلتفتوا إلى سلوكهم وما ينبغى أن يتصف به هذا السلوك من استقامة وما يهدف إليه من ثمرات طيبة تدر عليه إخلاف الرزق .

ولو كانت هذه العبارات المرددة ذات معنى كريم واضح لقلنا إنها ربما نفعت وهدت ، وأثرت فى مشاعر المرء ثم امتد هذا التأثير إلى سلوكه وأعماله .

ولكن نجد فى كثير من هذه الأدعية والأوراد غموضاً بما يختلط فيها من عبارات أعجمية تزيد فى غموضها ، فهى فى هذا أشبه بما يردده السحرة والمشعوذون ، ومثل هذا اللون من الأدعية لا يمكن أن يثير فى النفس إلا قلقاً واضطراباً أو فزعاً وخوفاً . . إذ كثيراً ما توحى هذه الألفاظ بأنها مشحونة

بقوى خفية من قوى الشر المدمرة للأعداء إذا كان الدعاء المردد مراداً به إلحاق السوء بأحد ، أو أنها مشحونة بقوى الخير إذا كان المراد بها دفع الضر وجلب الخير . . وفى كلا الحالين هى عبارات غامضة مخيفة ، مليئة بالأرواح والأشباح .

ونتجاوز هذا إلى ما قيل فى فضل بعض الليالى ، والأيام ، وفيما ينسب إليها من خصائص تغسل بها الذنوب ، وتمحى بفضلها الكبائر .

ورد فى بعض الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام : الخميس ، والجمعة ، والسبت ، كتب الله له عبادة تسعمائة سنة [١] » .

وماذا يعمل الإنسان من خير بعد هذا ؟ ولم يجهد نفسه بالصلاة والصوم ؟ ولم يعنى نفسه بالوقوف عند حدود الله ومحارمه ؟ ولم يحرص على سلامة دينه ونقاء صفحته وهو بصيام ثلاثة أيام فى أى فترة من فترات حياته وفى أى شهر من الأشهر الحرم يستطيع أن يحصل على رصيد ضخم من الثواب ، إنه عبادة تسعمائة سنة وهيهات أن يذهب بهذا الرصيد الضخم من الثواب ما تنضح به جوارحه من آثام وذنوب .

وتصور الناس وقد صدقوا هذا وآمنوا به ، ودخل على يقينهم أن هذا من كلام رسول الله الذى لاينطق عن الهوى . . فأى عمل صالح كان يقع فى هذه الحياة ، وأى إنسان يتجه إلى الخير وقد ضمن هذا الثواب العريض الذى لا ينفد على الأيام ، أرأيت إنساناً يملك بين يديه أكسير الذهب أتراه يعمل

---

(١) ديوان خطب ابن نباتة .

ويذهب مذاهب العاملين فى الحياة وثمّ وهو قابض على كل أسباب الغنى باسمة من يده إنه سينفق بلا حساب وفى الشر قبل الخير ! .

بمثل هذا التصوير الخاطىء فى مجال التعرض لرحمة الله ومغفرته يتبارى العلماء فى السخاء والبذل بلا حساب .. هذا يجىء به عن طريق الصوم ، وذاك يجىء عن طريق قراءة القرآن ، أو الصلاة على النبى .. حتى لا يشك الناس فى صدق نواياهم إذا كانوا لا يأمرون بمنكر ، ولا يوجهون الناس إلا إلى ما أمر الله به من صوم أو قراءة قرآن ، أو صلاة على النبى الكريم .. وهذا كما قلنا حق أريد به باطل .. فما أحد ينكر فضل الصوم ، ولا أحد يقف من قراءة القرآن أو الصلاة على الرسول موقفاً غير موقف التقدير .. ولكن أليس من التضليل بالناس والتغرير بهم أن يقال لهم : ورد فى الحديث : « فى أول ليلة من ذى الحجة ولد إبراهيم فمن صام ذلك اليوم كان كفارة ستين سنة » أو أن يقال لهم : قال صلى الله عليه وسلم : « من صلى علىّ واحدة أمر الله حافظه ألا يكتب عليه ذنوب ثلاثة أيام » وقال : « من صلى على واحدة صليت عليه عشرا ، ومن صلى على عشرا أصلى عليه مائة ، ومن صلى على مائة أصلى عليه ألفاً ، ومن صلى على ألفاً زاحمت كتفى كتفه على باب الجنة » .

وفى تفسير البيضاوى ، وهو عمدة من عمد التفاسير — تنتهى كل سورة بحديث عن رسول الله فى فضائل هذه السورة ، وكلها أحاديث تتجه هذا الاتجاه الذى يغرى الناس بالجرأة على الله ، والإقدام على المعاصى بما ييسر لهم سبل التخلص من الذنوب .

يقول البيضاوى عن سورة القدر : عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من

قرأ سورة القدر أعطى من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر » ما هذا ؟
ولِمَ الصوم إذن ؟ أهذا عدل ترضى به شريعة السماء ! .

ويقول البيضاوى عن سورة الزلزلة : « من قرأ سورة إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله » .

وما هذا أيضاً ؟ وبأى ميزان وزنت هذه القراءة ؟ والقرآن كله كلام الله وما الشأن إذن لمن يقرأ القرآن كله ، ولم قراءة القرآن وفى قراءة سورة الزلزلة أربع مرات ما يقوم مقامه ؟ .

والبيضاوى أيضاً : عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يقرأ سورة الفلق ، فقال عليه الصلاة والسلام : «وجبت» قيل يا رسول الله وما وجبت ؟ قال : « وجبت له الجنة » .

ومرة ثالثة ما هذا أيضاً ؟ الجنة بسورة الفلق .. قراءة مجردة بدون قيد أو شرط ! .

لا يشك عاقل فى أن هذه الأحاديث موضوعة .. لا ينطق بها نبى الإسلام على هذا الوجه ولا يفتح بها على المسلمين أبواب الآمال الكاذبة ، ولكن ما شعور المسلم الذى يضع بين يديه تفسيراً كتفسير البيضاوى ، يقلب النظر فى آيات الله وفيما يتصل به من شروح وتعليقات وفيما يقدم بين يديها أو يتبعها من أحاديث تنسب إلى رسول الله ، وتجرى على هذا النسق الذى أشرنا إليه ! .

وتفسير البيضاوى واحد من التفاسير التى تذهب هذا المذهب ، وإلى جانب هذه التفاسير عشرات من المؤلفات التى تتحدث عن فضائل العبادات والأذكار والأوراد وكلها تغرق المسلمين فى طوفان من الأمانى والأحلام ،

وكلها تشكك المسلم فى الحقيقة التى يدين بها الإسلام ، وتدين بها الحياة تلك الحقيقة التى لا تتخلف أبدا وهى : « الثواب على قدر المشقة » فمن جد وجد ، ومن زرع حصد ، هكذا توزن أعمال الناس ، وبها يقدر حظهم من السعادة أو الشقاء فى الدنيا والآخرة جميعا .. وصدق الله العظيم « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى[1] »

والمؤمن من هذه الأخبار بين أمرين إما أن يصدقها ويملأ قلبه بها ، ويأخذها أخذ الواثق المطمئن ويعمل حسابه على ما تعطى من ثواب وفى ذلك ضياع له ، إذا كانت بهذا الإسراف المسرف فى الثواب والمغفرة داعية إلى الجرأة على المعاصى واطراح الخوف والخشية من الله .. وإما أن يشك المؤمن فى صدق هذه الأخبار وفى هذا الشك ما يزعزع من عقيدته ويكثر من حيرته ، ويقعد به عن العمل الصادق بأوامر الدين ونواهيه .

---

(١) النجم : ٣٩ — ٤١

خاتمة

أما بعد :

فإنى أحب قبل أن أنهى هذه الفصول التى تحدثت فيها عن بعض معوّقات المسلمين التى كانت سبباً فى تأخرهم وشدهم إلى الوراء وعزلهم عن الحياة الجادة الناجحة أحب أن أشير فى إيجاز إلى بعض وجوه الإصلاح التى أرى ضرورة الأخذ بها ، أو تكون فى نظر المصلحين ممن تنزع بهم هممهم إلى الإصلاح من رجال الدين ، وغير رجال الدين ، ليأخذ المسلمون سبيلهم إلى الحياة الطيبة التى تسلك بهم مسالك الخير إلى الدنيا والآخرة جميعاً .

والأمر الأول عندى فى منهج الإصلاح المنشود هو توحيد هذه المذاهب الإسلامية المتفرقة ، بين مذاهب أهل السنة ، والشيعة ، وأصحاب الطرق لتجتمع كلها على طريق واحد يسلكه المسلمون جميعاً ، ويلتقون فيه على منهج مستقيم واضح هو منهج هذا الدين السمح القويم .

وليس الأمر فى هذا الاتجاه إلى توحيد المذاهب بدعا من البدع ، ولا هو مما يتردد المسلم فى التسليم به ، والاطمئنان إليه ، إذ الإسلام دين الوحدة فى المعبود ، والعابد من إله واحد ، وأمة واحدة « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون[1] » والمذاهب نفسها شىء حادث فى الإسلام ، لم يعرفه المسلمون إلا فى عصورهم المتأخرة ، فما كان لهذه المذاهب مكان فى العصر الإسلامى الأول ، وما كانت لتدور فى خلد أحد من المسلمين ولم يقم أحد

(١) الأنبياء : ٩٢ .

من صحابة رسول الله بإيجاد مذهب دينى له تجتمع عليه طائفة من المسلمين وإنما كان الصحابة رضوان الله عليهم أصحاب رأى وفتيا لكل من يلقاهم بمسألة أو مشكلة تعرض له فى أمور دينه أو دنياه فيجد من أصحاب الفقه والرأى من يتصدى للقول ، ويتعرض للجواب . . وقد يتفق الصحابة فى الرأى أو يختلفون ، ولكنهم أبداً جماعة واحدة تلتقى أنظارهم جميعاً على غاية واحدة ، هى التهدى إلى الحق والتعرف عليه ، يجىء من أى إنسان وينطق به أى لسان .

ثم إن أصحاب المذاهب أنفسهم لم يكن فى يقينهم أنهم يقيمون مذاهب من تلك البحوث والمسائل الفقهية التى عرضوا لها بالدرس والنظر ، وإنما هم مجتهدون ، حدا بهم حبهم لهذا الدين ، ورغبتهم الصادقة فى تذليل مناهجه وتقريبها إلى أفهام الناس — حدا بهم هذا إلى أن يعملوا رأيهم ، ويجهدوا جهدهم فى جمع الأدلة من مصادرها واستنباط الأحكام منها ، كل حسب استعداده وفهمه ، وليس له من غاية إلا أن يرضى رغبته فى البحث عن الحق ، ليتعرف الناس عليه ، ويهتدوا به ، وهو مأجور على أى حال : إن أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران .

إذن فليست هذه المذاهب على اختلافها أمراً جاء به الدين وألزم المسلمين به ، وإنما هى مباحث وآراء مستندة إلى الكتاب والسنة . . والكتاب والسنة فى معرض آراء المسلمين جميعاً فى كل زمان ومكان . . فمن التقى نظره بنظر مذهب من هذه المذاهب فذاك ، وإلا فله رأيه ونظره إن كان من أهل النظر والرأى ، وهيهات أن يخلو مجتمع إسلامى من أهل الرأى والنظر فى أى زمان ومكان

والمذاهب الإسلامية فى جملتها تصور الشريعة الإسلامية أتم تصوير ، فإذا توحدت هذه المذاهب ، وارتفعت منها الخلافات ، كانت طريقاً قاصداً ، ومنهجاً قويماً للمسلمين . . وأول ما يرجى من توحيد هذه المذاهب هو أن تخف حدة الخلاف الدينى بين المسلمين وتزول بينهم هذه الحواجز التى جعلتهم شيعاً وأحزاباً وألقت بينهم العداوة والبغضاء ، وأصارتهم إلى جماعات متباينة متباعدة . إذ لا شك أن قيام هذه المذاهب قد جعل لكل مذهب جمهوره ، وأنصاره ، وعلماءه ، ومؤلفاته .. وهذه كلها عوامل فرقة ، تجعل لكل جماعة مشاعرها وأحاسيسها التى تربطها بمذهبها وتحملها على التعصب له ، ذلك التعصب الذى كان سببا فى إثارة كثير من المسائل الخلافية والعمل على تقويتها وإحيائها ، فقد أدى التعصب للمذهب إلى الأخذ بالضعيف من الآثار وشذه بقوى الرأى التى تسنده وتدافع عنه ، كما أدى إلى التعسف فى تأويل النصوص الصحيحة وأخذها إلى الجانب الذى يعزز اتجاه المذهب . فكثرت من أجل هذا المسائل الخلافية بين جمهور المسلمين ، وكلها مدعم بالرأى مستند إلى الحجة ، وفى ذلك ما فيه من اضطراب العقول ، وزعزعة العقيدة ، إلى ما فيه من اتساع شقة الخلاف بين المسلمين وتمكين أسباب الفرقة فيهم .

فتوحيد المذاهب إذ يوحد جماعة المسلمين ، وإذ يقضى على كثير من مسائل الخلاف التى ولدها التعصب ، هو أيضا سيختصر كثيراً من مسائل الفقه التى طال حولها الجدل وتوسع فيها أمد البحث ، وبهذا يمكن أن يتعرف المسلم على قواعد الإسلام وأحكامه فى يسر ووضوح .

ولقد وقع هذا الإحساس بالضيق من المذاهب فى نفوس المسلمين ، وتحركت له هم المصلحين من قبل ، ووقعت محاولات كثيرة لتحقيق هذه

الغاية ، ولكن يظهر أن الأمر كان في حاجة إلى إمكانيات لم تكن مسعفة في حينها ، أو كان الرأى في حاجة إلى جرأة لم تصحب أولئك الذين تصدوا لهذا العمل .

وأقرب هذه المحاولات لتحقيق هذه الغاية تلك المحاولة التى قامت فى السنوات الأخيرة للتقريب بين المذاهب ، والتى ولدت فى فورة حماسية ، ثم جعلت تفتر شيئا فشيئا حتى خمدت أنفاسها دون أن يشعر بها أحد .

وعملية التقريب هذه مهما بلغت من نجاح فى هذا السبيل ، عملية ليس وراءها خير كثير فى هذا المجال ، إذ أنها كما يبدو كانت متجهة إلى حصر مسائل الخلاف بين المذاهب ووضعها تحت أنظار المسلمين جميعاً ليأخذوا بأى وجه منها . . أما المسائل الخلافية فتعتبر مذهبا واحدا للجميع . أى أن المسلم وهو مقيم على مذهب من المذاهب ينظر إلى المسائل المتفق عليها بعين . وينظر إلى المسائل الخلافية بعين ، وهذا أكثر ما يبعث القلق والاضطراب ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

والرأى فى توحيد المذاهب هو أن يخلو شعور المسلم من أنه على مذهب من المذاهب ، وإنما هو على الإسلام المستمدة تعاليمه وأحكامه من مصادره الأولى وإنما هو واحد فى جماعة المسلمين جميعاً ، لا تقوم بينه وبين جماعة منهم حدود أو فواصل .

ثم فى ظل هذه الوحدة يمكن أن تعرض مسائل الإسلام عرضا واضحاً موجزاً بعيداً عن الخلاف النظرى ، وعن المسائل الفرضية الشاذة التى لا تقع فى المجتمع إلا نادراً . وهذه المسائل الفرضية الشاذة قد استأثرت بالنصيب

الأكبر من الدراسات الفقهية ، وظفرت بالحظ الأوفى من الجدال والمصاولة بين أصحاب المذاهب .

وأعتقد أن هذا الاتجاه سيقصر كثيراً من هذا الطريق الطويل الذى يقطعه دارس الفقه الآن ، كما سيوفر الكثير من الجهد والوقت ليبذلا فى عمل نافع وإنتاج مثمر .

ولا أريد أن يقف الأمر عند حد المذاهب الأربعة وجمعها على طريق واحد ، بل أريد أن يتجاوزها إلى غيرها من هذه المذاهب التى يدين بها كثير من المسلمين ، كالشيعة الذين يمثلون جانباً كبيراً من جمهور المسلمين ، وكالدروز ، والقادنية وغيرها .

فالشيعة مثلا أياً كان أمرهم مسلمون لاشك فى هذا . وخير للإسلام وللمسلمين أن تضاف إليهم هذه المجموعة الكبيرة من الناس لتكون لهم منها قوة يستندون إليها ، وينتفعون بها .

فالإسلام الآن فى وجه عداوات تكيد له وتعمل على هدمه ، والمسلمون فى مهب عواصف عاتية تهب عليهم من كل جانب ... والشيعة قوة يجب أن يحسب حسابها وينتفع بها فى مجال الدفاع عن الإسلام ، فكسبها كسب للإسلام ، وخير لهم وللمسلمين جميعاً .

ولكسب الشيعة إلى جمهور المسلمين يجب ألا ننظر إلى ما بيننا وبينهم من خلاف إلا كما ننظر إلى الخلاف بين أصحاب المذاهب الأربعة . فالشيعة مذهب يقف بمذاهبه المتعددة المختلفة فى مواجهة المذاهب السنية الأربعة ... والشيعيون يعدون أنفسهم مسلمين ، يؤمنون بالله ، وبالقرآن ، وإن كان لهم

تأويلات وآراء تختلف مع جمهور المسلمين ، فى بعض المسائل الفرعية التى لعبت السياسة دوراً هاما فى إبرازها والتماس أسباب البقاء لها ...

وفى ظل هذه النظرة التى يجب أن ننظرها فى الخلاف الذى بين الشيعة و بيننا ، تخف شدة الحماس الخلافى بيننا و بينهم ، وتقصر مسافات الخلف ، و يضمن المستقبل اجتماعهم وأهل السنة على وجه واحد .

لقد صدع هذا الخلاف بين السنية والشيعة قوة المسلمين فى كثير من المواطن وجر عليهم كثيراً من الآلام التى يجرها الضعف والتخاذل . وأقرب مثل لهذا مايجرى فى لبنان ... فالمسلمون — سنيون ، وشيعة كثرة غالبة فى هذه البلاد ولكنهم بهذا الخلاف البعيد الواقع يعتبرون أهل ديانتين مختلفتين، فالسنيون على دين السنة ، يسأل أحدهم عن دينه فلا يقول مسلم بل يقول : سنى . يسأل أحدهم عن دينه فلا يقول مسلم بل يقول شيعى ، والشيعيون على دين الشيعة وكلاهما يعد الآخر على غير الإسلام . وبهذا خفت صوت الفريقين معاً ، وأصبح هؤلاء وهؤلاء قلة بين أبناء لبنان ، كل طائفة منهم تمثل ديانة خاصة به . ومن أعجب العجب أن فى لبنان طائفة ثالثة من طوائف المسلمين هى الدروز ... وهى تكفر الشيعيين والسنيين ، كما يكفرها هؤلاء وهؤلاء ...

والدروز قوم شجعان لهم بأسهم ومكانهم فى لبنان ، وهم مسلمون لاشك، ولكن الخلاف بينهم و بين المسلمين قد اتسعت هوته بدوافع العناد والمكابرة وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه الآن ، فأصبح الكثير منهم يقف فى أى موقف يكون ضد السنيين أو الشيعيين وحتى لقد حدث فى عهد قريب أن أعلن أحد زعماء الدروز أنه خارج عن الإسلام وقد خرج فعلا إلى النصرانية،

لا عن عقيدة ولـكن مكابرة ، وتحديا للشيعة ، والسنيين ، وإظهاراً لسطوته وجبروته ، وهكذا يفعل العناد ، واللدد فى الخصومة ، وصدق المثل القائل « العناد يورث الـكفر » .

وهكذا صار الأمر بين المسلمين فى لبنان . . إنهم كثرة فى مجموعهم،وكان يجب أن يكون الأمر إليهم لو أنهم التقوا على وجهة واحدة ، واجتمعوا جميعاً على الإسلام الذى يدعيه كل فريق منهم ، وينكره على الفريقين الآخرين.

وهكذا أيضا تعمل الفرقة الدينية القائمة على مثل هذه الخلافات فى كل مجتمعات المسلمين ؛ فى الباكستان ، وفى إيران ، وفى العراق ، وسوريا ؛ والمغرب الأقصى ... إنها أمر قد فعل فيها الخلاف الدينى مالم تفعله قوى الشر المسلطة عليها من الاستعمار الأوربى على اختلاف صوره وأشكاله .

إنه ليس للإسلام ولا المسلمين مصلحة ظاهرة فى هذه الفرقة ، وليس للإسلام ولا المسلمين خير فى هذا الخلاف الواقع بين أصحاب المذاهب الأربعة من جهة ، ثم بين هذه المذاهب ومذاهب الشيعة ، والدروز ، والقادنية وغيرها من جهة أخرى . .

إن هذا الخلاف قد كان فى أول أمره محدوداً ينزع إلى تحرى الرأى الأمثل فى أحكام الشريعة ، ثم طال به الزمن فاتسعت شقة هذه الخلافات بما عمل فيها من نوازع الهوى ودوافع العصبية وأطماع السياسة ، فإذا رجع المسلمون إلى رأى واحد ، وصاروا إلى جماعة واحدة ، فإنما ذلك هو شرع دينهم الذى تشير إليه الآية الـكريمة « إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » .

هذه أول شوكة فى طريق الإسلام ، يجب أن يعمل المسلمون جميعاً على إزالتها ، ليضبح المجتمع الإسلامى كله أمة واحدة تنتظمها مشاعر متحدة وتمسك

بها أحاسيس مشتركة ، وفى هذه الوحدة خير يصيب كل جماعة من هذه الجماعات بإضافتها إلى الأمة الإسلامية ، ثم فى هذا خير مضاعف للإسلام والمسلمين جميعاً بتقوية دولتهم و إعلاء كلمتهم ، وجعلهم قوة لا تنال منها الأطماع .

والأمر فى إزالة هذه الشوكة هين . . لأن ديننا يسر ، يجرى على السماحة فليس فيه ما يضل العقول ، و يبلبل الأفكار ، وليس فيه ما يدق على الفهم ، و يخفى عن النظر .

فالعقيدة التى هى أساس هذا الدين ، كلمة واحدة هى التوحيد الذى تشرحه السورة الكريمة : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد[1] » . وليس للمسلم أن يذهب بعقيدته إلى أبعد من هذه الحدود . . الله واحد لا شريك له ، لا والد له ولا ولد ، هو خالق كل شىء و إليه مقاليد كل شىء .

والعبادات : الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، أيسر من اليسر ، صور من الأقوال والأعمال ، ينتظمها جميعاً شعور العبودية والخشوع لله الواحد الأحد ونظام الأعمال وترتيب الأقوال لا يصح أن يقوم حوله جدل أو خلاف لأن الأعمال والأقوال غير مقصودة لذاتها ، و إنما هى وسائل إلى الاتصال بالله ، وما دامت مشدودة بأحاسيس الخشوع والخضوع فإنها مستندة فى هذا إلى أكمل الوسائل وأقربها فى الوصول إلى الله ، فالحساب الدقيق العسير المرهق فى ضبطها هذا الضبط الذى تستخدم له كل وسائل العلم من رياضة وهندسة وجغرافية وكيمائية . . . هو عنت لا طائل تحته ولا خير من ورائه ، بل إنه إن كان شىء فهو شر إذ يصرف الإنسان عن الغاية و يعوقه عنها ، و يصرف جهده وأحاسيسه إلى العرض دون الجوهر .

---

(١) الإخلاص

والمعاملات ، والآداب قد رسم الدين لها حدودها العامة ، وربط تطبيقها على واقع الناس وحياتهم وقرنها بالمصلحة العامة التى تمليها أحوال الناس وظروفهم . وليس للدين فى هذا المجال أكثر من التوجيه العام الذى يحدد الخطوط الرئيسية للحلال والحرام .

وبهذا الاتجاه نستطيع أن نجعل دستور الإسلام واضحاً ، وأحكامه محددة نتجه إليها فى غير تردد أو اضطراب ، ثم نصرف جهدنا كله بعد هذا إلى العمل والانتفاع بما يوجه إليه ديننا من الفضائل ، وما يرشد إليه من الأعمال .

وبهذا الاتجاه أيضاً نبعد الدين عن كثير من مشكلات الحياة اليومية التى تعرض للجماعات والأفراد ، فإنه من الخير لنا ولديننا أن ننأى به عن معرض التحكيم فى هذه المسائل العارضة التى تلبس كل يوم زياً من نسج الحياة التى يحياها الناس ولنجعل الدين مستشاراً عالياً لا يتجه إليه إلا بحساب ولا يغشى حماه إلا بقدر فذلك فيه العافية لنا والسلام لديننا .

* * *

والشوكة الثانية التى تعترض طريق الإسلام هى أصحاب الدعوات والطرق .. فهذه الدعوات وتلك الطرق قد يكون فى بعضها خير ، ولكن الكثير الغالب منها يتجه إلى النفع الذاتى ويتخذ من الدين وسيلة لتضليل الناس وتخديرهم بالايحاءات التى يحسن هؤلاء الطرقيون صنعها واستخدامها لكسب القلوب، وجمع الأتباع ، ليكثر مغنمهم ، ويعظم ربحهم .

فإذا كان بعض أصحاب الدعوات قد نجح فى نشر الدعوة الإسلامية فى أنحاء متفرقة من هذا العالم فإن كثيرا من أصحاب الدعوات قدغرروا بالمسلمين ،

وسلكوا بهم مسالك شائكة ، وصرفوهم عن الدين الصحيح إلى خرافات وأباطيل لا تنفع فى مواطن الجد .

ولا نريد بهذا أن نمسك الداعين إلى الله عن أداء رسالتهم و بذل النصح للناس ، و إنما نريد أن تأخذ هذه الدعوات طريقها السليم ، وألا يتولاها إلا من حسن دينه وخلصت نيته .

فمن كان يجد من أصحاب الدعوات قدرة على الإرشاد والتوجيه ، ونية خالصة للعمل ، فليجعل المسلمين جميعها فى معرض دعوته ، ينصح و يرشد ، و يوجه دون أن يتخذ له زيًّا خاصًّا ، ولا مراسم معينة ، ولا جماعة خاصة ، ولا أنصارا ولا أتباعاً .. إنه يجب أن يكون كالزهرة تندى بعطرها الأجواء المحيطة بها لا أن يكون مصيدة تنصب ، وشبا كا تلقى .

إن الطرق المذهبية على أية حال من الأحوال باب من أبواب الانقسام والفرقة فى المجتمع الإسلامى ، فلو صرفنا النظر عن اتجاهاتها الدينية وما تنطوى عليه فى كثير من الأحيان من إفساد وتضليل ، لكان فى تعددها واختلافها ، وتعدد طوائف المسلمين واختلافهم تبعا لها — لكان فى هذاما يوجب العمل على إعادة النظر فى أوضاعها القائمة ، وفرض رقابة يقظة واعية تأخذ عليها السبيل إلى العامة وأشباه العامة ممن ينخدعون بها و يستجيبون لها .

* * *

وشوكة أخرى نراها تعترض سبيل الإسلام وهى سوء عرض الحقائق الإسلامية ، وما تضمنته الشريعة من مبادىء وأحكام ، وسوء عرض هذه الحقائق يبدو فى مظهرين : أولهما المجتمع الإسلامى نفسه ، فهذا المجتمع هو المرآة التى تنعكس عليها تعاليم الإسلام ومبادئه ، والتى يراه العالم كله من خلالها ،

ويقدر أن مبادىء هذا الدين هى الصورة المطبوعة على هذا المجتمع وأن ما يبدو فى مظاهر حياته الاجتماعية ، والسياسية ، والدينية وغيرها من مختلف ميادين النشاط الإنسانى إنما هو من وحى هذا الدين .

وإذا كان المجتمع الإسلامى هو الصورة التى يرى فيها العالم حقيقية الدين ، فإن رجال الدين هم وجه هذه الصورة ، إليهم تتجه الأنظار وعليهم تنطبع ملامح الشريعة ، وتظهر مقاصدها ، وإذن فقد وجب أن يتمثل المجتمع الإسلامى كل خصائص هذا الدين . وأن يكون العلماء هم أصحاب النصيب الأوفى من هذه الخصائص فإن لم يكن ذلك ساء ظن المسلمين بالعلماء ، واضطرب رأيهم فى الدين ، ثم ساء ظن غير المسلمين بالإسلام كله فبدا لهم الإسلام هزيلا ضعيفاً مضطربا ، لهزال أتباعه وضعفهم واضطرابهم .

والمظهر الثانى الذى يبدو فيه سوء عرض الحقائق الإسلامية ، هو هذه المؤلفات الكثيرة المتنوعة التى تناولت الشريعة الإسلامية من عقائد وعبادات ومعاملات . . فهذه المباحث جميعها غارقة فى غبار الخلافات المذهبية التى ذهب بها التعصب والعناد إلى أبعد غايات التناكر والخلاف ، وهذه المباحث أيضا قد دخلها كثير من الزيف والتضليل ، ودس عليها كثير من كيد الكائدين ومكر الماكرين . . ثم هى مع هذا محسوبة على الإسلام منتسبة إليه .

والذى يريد أن يتعرف على الإسلام تعرفا كاملا واضحا لا يمكن أن يجد فى هذه المباحث الكثيرة شيئا ينفع ، أو يمسك بيده حقيقة كاملة منها ، فهو إن وجد رأيا هنا وجد هناك آراء أخرى تنقضه . . وغير المسلم معذور إذا ابتعد عن هذه المباحث ووفر على نفسه ما يبذل من جهد لا يظفر منه إلا بهذه الحيرة والاضطراب . . وهو معذور أيضا إذا نظر فى جميع المذاهب الإسلامية ،

وارتضى أى مذهب منها وعده الممثل لمبادئ الإسلام ، ولو كان هذا المذهب من مذاهب الشيعة أو الدروز ، فهى مذاهب إسلامية على أية حال .

وعلاج هذه الظاهرة يكون فيما أشرت إليه من قبل من توحيد المذاهب ثم فى تصفية المسائل الخلافية ، وعرض تعاليم الشريعة وأحكامها عرضا واضحا ميسرا لا تعقيد فيه ولا التواء ، فإن هذا الدين يسر ، والطريق إليه أيسر من اليسر .

فهرس الكتاب

صفحة

الثمن ١٥ قرشا